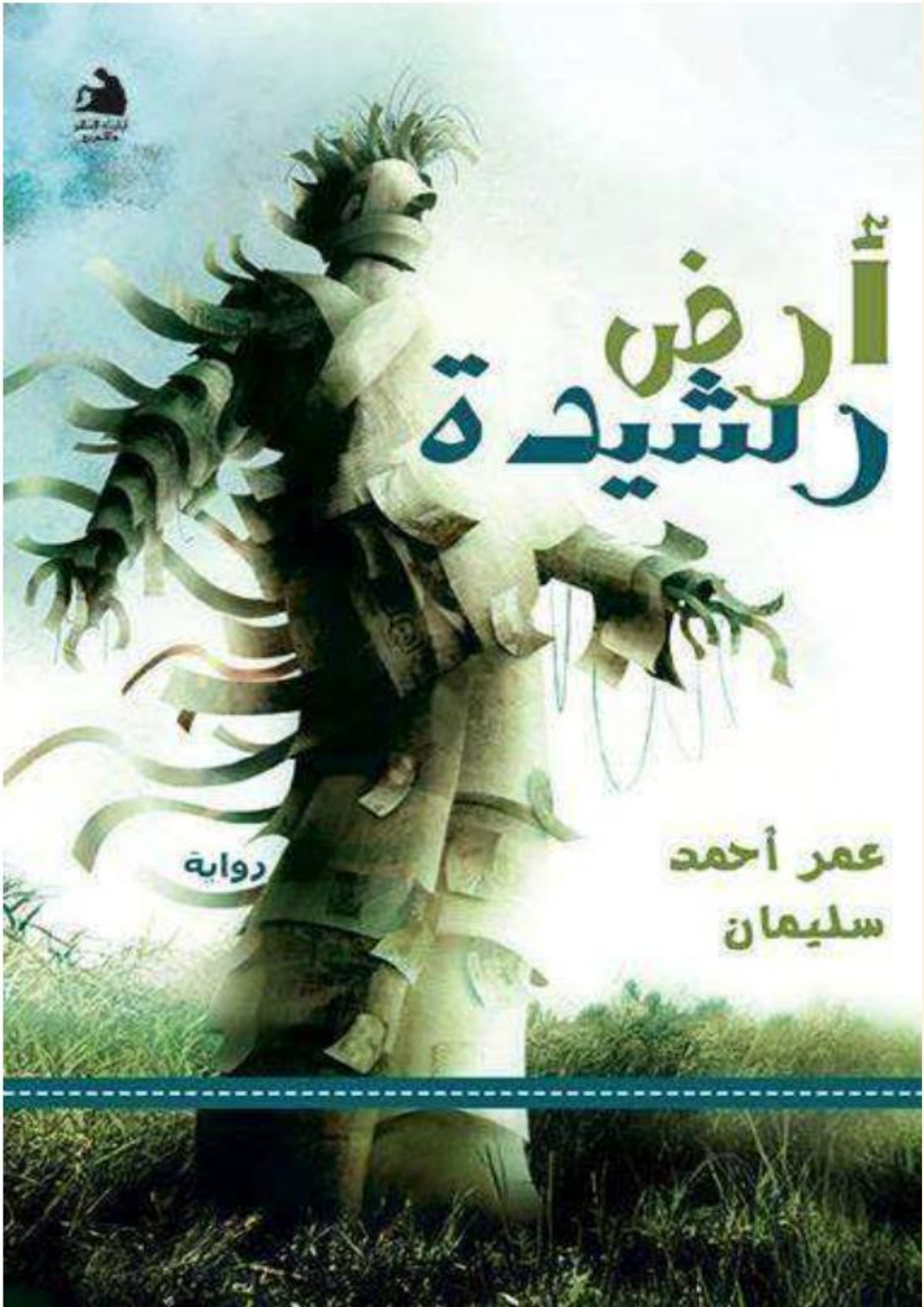

أرض
رشيدة
عمر أحمد
سليمان
رواية

إهداء

إلى العالم الذي يعيش فيه الإنسان،،،

إلى العالم الإسلامي، خير أمةٍ أخرجت للناس،،،

إلى وطني العربي المُناضل،،،

إلى مصر بلدي الحبيبة، أُم الدنيا،،،

إلى المصريين أهلي الطيبين الشرفاء والأحرار،،،

إلى الإسكندرية عروستي الأميرة،،،

وإلى كل مدينة قديمة وجديدة على أرض الكنانة،،،

عُمر أحمد سُليمان

(1)

عاش "حسن" و"زينة" في إحدى القُرى الريفية الجميلة بمدينة الفيوم قُرب القاهرة، تقع القرية بين عين السيلين الجميلة، وبين بحيرة قارون، ولكنها أقرب للأخيرة، ويمر من خلالها بحر أو ترعة يوسف، أحد فروع النيل التي تمد الفيوم بالماء العذب..

كانت القرية مُتكونة من الطوابق الطينية الواحدة.. النهر والزروع والأشجار والنخل والسماء يسودون كل شيء.. المُزارعين يقومون على أرضهم، ويتنقلون بَشوشِين أبرياء في طُرقهم على الحمير، أو العربات التي تجرها الأحصنة.. لوحة خلابة نابضة بالحياة الرائقة..

كانت مهنة "حسن" هي الزراعة، تعلم حتى الإعدادية، خرج بدون تخرج من السنة الثانية من الثانوية، لم يرغب في إكمال تعليمه، ود أن يعمل بالزراعة في أرض أبيه، وأن يتقوت منها مدى عُمره، خاصةً لأنه ميال لـ "زينة" الجميلة الرزينة، ويرغب في الزواج منها..

لم يتضايق والده كثيراً، استحسن فِعل ابنه في النهاية، مُعقباً بأن هذا أفضل ما يصل إليه الفلاح في التعليم، اغتبط لأنه سيقتصد عليه مصاريف الدراسة، وسيتوفر لمساعدته، خاصةً مع سنه الكبيرة..

أما "زينة" فهي فتاة في الخامسة عشر، لم تُكمل تعليمها الابتدائي، مثلها مثل كل مثيلتها في القرية، لكنها كانت أجملهن وأرشقهن وأذكاهن.. لذلك أحبها "حسن"، ثُم بها، وراح يُراقبها عند الشروق وهي تحمل مع قريناتها قدورهن الفخارية لملأها بماء النهر العذبة المتدفقة في الترعة، وكذا عند الغروب، يُحاول أحياناً أن يلتقيها عند شجرة الصفصاف القريبة من الترعة، فتُوافيه عن بُعد وهي في غاية الخجل، يتناجيان

حديثاً رقيقاً يدور حول مشاعرهما الجميلة، في لوحة خلابة تمتلئ بأجمل عناصر الكون..

البساطة، والجمال، والحب..

لم يكن يشغلهم شيء عن تبادل مشاعرهم.. كل شيء ملك أيديهم، كل شيء يلمسونه يزدهر، يُشرق، يلين، وينعم.. لا شيء يُلهيهم عن سعادتهم التي استحوذت على كيانهم شهور.. قضوها في جنة حقيقية..

لم يكن من داعي للانتظار أكثر، وإلا لتأجج الحب واشتعل وصنع الخراب والعذاب الأليم !..

هكذا هو الحب.. إذا اعتدل ووصل إلى حَده كان جنة ولذة يطير لها الكيان.. وإذا تجاوز هذا الحَد انقلب وأصبح عذاباً، وكئابةً وأحزان متوالية...

كان لا بد من جمع طرفي الحب، الذي أوشك على الاشتعال فيما حوله.. كان بديهياً أن يضم الأهل هذين الغَضين لعش الزواج باكراً، صيانةً لهم من كل سُوء قد يطالهم...

ما أن تقدم الفتى مع والده لأهل الفتاة، حتى رحبوا بهم، وأجابوهم وقبلوهم، وقال الأب الطيب: هي ابنتكم منذ اللحظة...

أصبح كل شيء بعد ذلك سهلاً.. بُنيت داراً صغيرة من الطين للعروسين بجانب دار الأب، وببعض القروش القليلة اشتريا بعض الأثاث، نظموها في أنحاءه.. أُضيئت الأنوار على واجهة دار العريس، وواجهة دار العروس، والتم أهل القرية لتهنئتهم، يمتد تيار الرجال منهم إلى دار العريس، والساحة التي أمامه، أما النساء منهم فيمتد تيارهن إلى دار العروس.. يرقص الرجال على أنغام فرقة عزف تقليدية، ويقوم العريس بمباراة أقرانه في التحطيب.. وترقص النساء على أنغام أغانيهن الجماعية داخل الدار، في وسط حلقة كبيرة منهن، تتصدرها العروس في زينة رائعة برغم بساطتها.. بعد ساعة حضر العريس في زفة كبيرة ليُرافق العروس إلى بيتهما الجديد..

بهذه الكيفية المتواضعة تم العُرس، وانضم الحبيبين في عشهما الصغير، تغمرهم مشاعر سعادة مُتناهية لم يسبق أن شعرا بها في حياتهما..

يعيشان معاً كأسرة صغيرة لم تزل في براعمها، لم تُزهر بعد.. يخرج "حسن" عند الفجر، يأخذ بيد أبيه، يشقا بفأسيهما الأرض، يبذرا البذور، يروياها بماء فرع النهر الممتد من الجنة، فيُعرش لهما بروح الله سنابل القمح الذهبية.. يحصداه، ويبيعاه.. يجزل الله عليهما من الرزق الوفير، يعم به الوالد ذراريه، يخص "حسن" بنصيب أوفر؛ لأنه كان له يداً بيد في حرث الحقل..

عند المغيب يرجع "حسن" من الحقل إلى داره، وهو في قمة التعب والجهد..

تستيقظ "زينة" مع زوجها عند الفجر، تُجهز له أدواته، تُحمله بها، وتدعوا له بالقوة والمحصول الوفير وهي تفتح له الباب للخروج..

تأوي إلى بيت العائلة، تخرج مع زوجات الإخوة والأبناء لملئ الأجفان من فرع النهر، تذهب وترجع مرتين، ترجع إلى دارها تارة، والتارة الأُخرى إلى دار عائلة زوجها، ثم تصنع معهم الخبز والفطير في تنورهم الحجري، تفطر معهم عندما يأوي زوجها ووالده في فترة الراحة.. بعدها، يُعاود ربا العائلة العمل في الحقل، تبقى هي مع أهل زوجها يعدون جميعاً طعام الغداء..

عند الظهيرة، يستدعون ربا عائلتهم.. يجلسون جميعاً على "الطبلية" ويتناولون خير ما أعطاهم الله من الطبيعة الطيبة..

يحمدون الله على المأكل والمشرب، ثم يقيلون ساعة، ويُعاودون العمل.. فيما تجلس الجارات عند العصاري على مخارج الديار يثرثرن، ويلعب الأطفال قُربهن..

عند المغرب ترجع "زينة" إلى دارها.. تعده لاستقبال زوجها.. عندما يهل، تُعانقه بكل الحب والشوق، تُعاونه على تبديل ملابسه، وتدليك أقدامه، وتنظيف جسمه من العرق والطين..

يتغزلان ويتداعبان ويمرحان في سعادة ورِفاء، ثم ينامان ملئ عينيهما قريري العيون بعد العِشاء..

ظلا في تلك السعادة سنين.. قَل تردد "زينة" على دار الأهل بعد خِلفتها ببناتها "سلوى" و"آمنة" و"رشيدة"..

استحسن "حسن" أن تقر "زينة" في دارها، مع بناته.. فقد شعر بالاستقرار والاستقلالية في ذلك.. استطاع أبا البنات أن يشعر بالسعادة تكتنفه عندما ينغلق عليه الدار مع أسرته المؤنثة الرقيقة.. شعر أنه ملك السعادة في الوجود..

تُوفي والده، وورث الحقل مع إخوته، وكالعادة حصل اختلاف في الميراث، فاشترى نصيبهم فيها، وسار كل أخ بأسرته في مسارب الحياة...

حيزت الدنيا لـ "حسن" من بعد ذلك، رغد عيشه من بعد الفقر، استطاع أن يشتري عدة حقول، من حصيلة كده واجتهاده في حقله الأصيل، وقد تعب من الزراعة والحرث والشق، فاستأجر عُمالاً في حقوله للاهتمام بها كما ينبغي، واكتفى بالإشراف عليهم، أو توكيل مُراقب ومدير لهم كما يفعل كثير من الوُجهاء.. أصبح من التجار المحترمين في مجال المحاصيل الزراعية عالية الجودة، كسب جيداً من نتاج حقوله الممتازة كل عام..



(2)

مع السنين، وفي غضون عشرون عاماً مست القرية روح المدنية عقب حرب 73، وبدأ كل شيء يأخذ مجرى التجدد والتقدم والتطور في أغلب القُرى..

لحق التغيير كل شيء.. اتشحت القرية بوشاح المدنية بالكامل، للدرجة التي صُنفت فيها بـ"المدينة" بدل "القرية"..

اختفت الحقول عدا الحقول المُطلة على النهر مُباشرةً، وحلت محلها المباني المكونة من خمس وست طوابق بدل طابق أو طابقين على الأُكثر..

دخلت الكهرباء، أصبحت شيء أساسي بداخل كل منزل وبيت، يستمعون بها إلى المذياع، ولم يلبث طويلاً حتى استمدوها لأجهزة التلفزة، ثم الثلاجات، والخلاطات، والمراوح، والغسالات...

دخلت السيارات بأنواعها، سُفلتت الطُرق الطينية والترابية.. خيم الغبار والغيم المتخلف من عوادم السيارات على جو القرية المتمدينة، علا الصخب من بعد الهدوء، انتشرت المحلات التجارية التي تُضاهي محلات المُدن المُرفهة، رُصت فيها كل البضائع التي تُوفر متطلبات المدنية المُرفهة..

مع هذا التطور والانفتاح غلت الأسعار، حل مبدأ المال ليُسيطر على حياة المدينة من أول براعم أهلها، مروراً بشبابها، وحتى شيبتها.. وكان بالضرورة استيراد المدنية بثقافتها وأفكارها وسياستها.. فطغت على العقول والمعيشة والحركة والسُكنى، بل واليقظة والمنام !

تجاوب "حسن" مع التطور بكل حماس وترحيب.. اختفت الزراعة، ولم تعد تمنحه متطلباته هو وأسرته، ذاعت لغة المال، فاعتنقها، مُرتئياً كما ارتأى الكثيرون من قبله ومن في عصره، وفي مدينته، أن هناك طُرق أكثر إدراراً للمال من الزراعة،

والفلاحة.. لم يجدوا سوى المعمار والبناء، إنها تجارة مُربحة للغاية في عز الحاجة للسكنى ومضاهاة ثقافة الوجاهة السكنية المستقدمة من المُدن والدُول الكبرى.. فبوروا الحقول والأراضي، ثم حفروها حُفراً عظيمة، وأفرغوا فيها الإسمنت لتتجمد الأرض جذوراً للبنايات السامقة.. وراحوا يملكونها ويؤجرونها...

نتيجة لذلك، اختفت الترعة العظيمة من الأُفق، وراء سدود العُمران والمباني الشاهقة..

لم يستطع "حسن" أن يُناطح أمثاله في البناء.. فلقد غرق عدة مرات بين سرقات المقاولين، نتيجة عدم حنكته في مجال البناء والعمارة، فلقد أدرك أنه في الأصل مُزارع وتاجر محاصيل زراعية، لكن بعد فوات الأوان..

لم يستطع أن يحتفظ إلا بما يصون معيشته هو وأسرته الكريمة، فاكتفى بجزء صغير من حقله قُرب فرع النهر، زرعه ببعض المزروعات البسيطة تحت مسؤولية مُزارع يمنحه أُجرة عليه.. وكذلك بمحل لأدوات البناء، بأسفل البناية المؤثثة جيداً، والتي بقت له من الذي ترنح وذاب، وهي مُكونة من ست طوابق، عاش فيها بإحدى شققها الواسعة بالدور الثاني، فرشها جيداً بأحلى الأثاث مع زوجته وبناته، وأجر بقية الشُقق للسكان بطريقة الخلو (الإيجار القديم)..

لم تعش البنات كثيراً في مظاهر الريف القديم، لا يتذكرن إلا القليل..

الأب نفسه نزع إلى حياة الترف، والمدنية، بل إنه غالباً ما يُغير ملبسه من العباءة إلى القميص والسروال، والحُلل والسترات الأنيقة التي يُحب ارتدائها في المناسبات والأعياد وعند التلاقي مع الأهل والأصدقاء، راقته المدنية، استمتع بميزاتها، فانغمس وغمس أسرته معه فيها !

ارتبطت "زينة" بكل برامج التلفاز، وتطور ملبسها هي أيضاً، أصبحت ترتدي الفساتين.. الشيء الوحيد الذي تحرجت من فعله بكثرة، ولم تستطع التعود عليه هو الخروج، لذلك قَرت في بيتها الأنيق..

بصفةٍ عامة كانوا يُحاولون أن يتشبهن بأبناء الحضر الذين أصبحوا منهم، يُحاولون بكل السُبل إقناع أنفسهن ومَن حولهن أنهم ما خُلقوا إلا أبناءً للمدينة، وتوابعها، وأن المدنية ما أدركتهم إلا بتطلعهم إليها، وتجاوبهم مع مظاهرها وأُبهتها، وأنهم أبناء عصر الانفتاح الفائزين، وليسوا أبناء الفلاحين الأقدمين !..

أصبحوا يأكلون الآن على الموائد العالية، يجلسون على المقاعد، يتناولون المعكرونة ولحم (البوفتيك) وأصناف أطعمة المدينة، راح "حسن" يقرأ الجرائد، وتُتابع السيدة زوجته المسلسلات كأرستقراطيين ورثوا الارستقراطية التي تحكمت في مصير أجدادهم قروناً، رجعت إليهم بعد اختفاء طبقة الأرستقراطية العُلية، واستهلاكها بين أفراد الشعب كحق أصيل لهم مثل أراضيهم المملوكة لهم بحق أصالتهم وكدحهم فيها آلاف السنين..

أدخل "حسن" بناته المدارس الخاصة، وحرص على تعليمهن جيداً..

كبرت البنات على هذا المستوى الأقل من راقي بدرجة أو درجتين.. لكنه أفضل كثيراً من المستوى المتدني، الذي يسمع عنه من حين لآخر من زيادة في مُعدله بأنحاء مصر، فأصبح السمة الغالبة على شعبها..

عندما حان زواج كُبرى بناته "سلوى"، بتقدم بعض الخُطاب إليها، زوجها من المُقتدر الذي استطاع توفير الشقة لها، ودبر مشتقات الزواج بعد عام من الخِطبة..

في تلك الأثناء تزوجت "آمنة" بنفس الطريقة، وكادت الزيجة تُنقض قبل عقدها.. لولا أن تمسك الفتاة بعريسها جعل الأب يتهاون قليلاً، ويساعده في تجهيز شقتهم وأثاثهم.. ومع ذلك فقد شعر بأنه تعرض لضغط لم يرضاه، نبتت على أثره ضغينة بينه وبين زوج "آمنة"، لم تضمحل أبداً مع الأيام، جعلته أصعب مراساً مع الخُطاب الذين تقدموا لـ "رشيدة"..

"رشيدة" كانت أكثر اهتماماً بتعليمها، وأكبر تطلعاً إلى عملها.. لذلك لم ترضخ لكل الخُطاب الذين يرغبون في حرمانها ـ على حد تعبيرها ـ من تطلعاتها، برغم سعتهم وغناهم، ورضا الأب عن مستواهم المادي.. إلا أن ما لهذه الفتاة الصغيرة من محبة

ومعزة في قلبه؛ جعلته يُخفف من حدته وصعوبته معها، ويرضخ لإرادتها ومطالبها وتطلعاتها..

***

(3)

في تلك الآونة عملت "رشيدة" في نطاق البحث العلمي، بعدما تخرجت من كلية التربية بالفيوم، وحصلت على درجة (البكالوريوس) في العلوم والتربية في تخصص علم الأرض (الجيولوجيا)..

كانت مُتيمة بهذا المُبحث.. ولم يكن أحد يهتم به إطلاقاً.. لكنها كانت تُفكر باستمرار في ماضي أرضهم البِكر، الفسيحة المترعة بالخير، ثم التغير السريع الذي لحق بها وغيرها تماماً، فتراكمت فوقها سدود البشر الثقيلة الشاهقة، فحبست عنها حريتها، في ضي الشمس، ونسمات الرياح.. ففقدت تنفسها الآن فلم تعد حرة، بل مُقيدة، مُنع عنها ماء النهر، وحُجزت عنه.. هي أيضاً تشعر بأنها فقدت هذه الأشياء، وقد لمست منها الجزء اليسير لما كانت صغيرة.. لكن هذا الجزء اليسير انحفر في ذهنها أبداً كالنقش على حجر، فحنت إليها فطرتها باستمرار..

تذكُر حقلهم الخلاب الذي كانت تجري فيه بين مزروعاته في قمة السعادة والمرح والانطلاق.. تتألق السنابل وتتحرك بزهو مع حركاتها وقفزاتها، وفي عقلها الصغير تستشعر بأن الأرض تُحييها وتُبادلها السعادة والضحكات..

وهذا النهر، عندما كانت تجلس على ضفته بصُحبة أمها وأخواتها، وهي ابنة سنتين وثلاث سنوات.. كان يأسرها منظره وجماله ومذاقه، وتشهد أن هذا الماء هو سر كل ما يُحيطها من حياة.. إنها تتجرعه من "الزير" الذي تصب أمها فيه جفنتها الممتلئة بالماء العذب، من نفس الماء تشرب البهائم والطيور.. ومن نفس الماء يشرب الزرع، وترتوي الأرض.. لطالما حيرها هذا النهر وأعجبها في سنها الصغيرة، حتى كبرت وفهمت وأدركت معاني ما كانت تُفكر فيه..

أحزنها أن يمر بهم النهر بخيره الجزيل، ويغض أهل المدينة الحداثى، أهل القرية القدامى عنه أبصارهم..!

كم ازدرت تلك العمائر التي صرفت عن أرضهم خيرها، بل إنها تتخيل منذ كانت صغيرة بعد أن أُنشأت المباني بأن الأراضي تأن من تحتها، تمد يدها الوهمية تستغيث بالنهر كي يزيح عنها هذا الحِمل القاتل، ويهبها جرعة من مائه تُطفئ به ظمأها الطويل...

لذلك كُله أرادت "رشيدة" أن تأخذ درجة (الماجستير) في موضوع شديد الصعوبة عليها جداً، ولذلك اختارته..

(أثر العمران على البنية الطبيعية "الطبوغرافية" لحوض النيل)..

كان عليها أن تبحث من اتجاهات عديدة وشاملة، فالمُبحث ثري، يحتاج لإمدادات من شتى العلوم.. منها الهندسة، والزراعة، ومتخصصين في علم الأرض...

إن لديها العزم على إتمامه.. ينبثق عزمها من إحساس عميق بالحزن والغضب، رغبة في الانتقام.. الانتقام لصديقها.. النهر، وصديقتها الأرض..

إنها حتى الآن تذهب في خلسة من النهار إلى حقلهم الصغير، تجلس قُرب النهر تُحدثه، تستمع إلى همسات أمواجه الملساء.. تشعر أنها على صلة به وثيقة، تتماهى فيه، ويتماهى بها.. يُعلن لها رغبته في البقاء والاستقرار والاستمرار في حقلها والحقول المُجاورة بعد سفر طويل بلا مستقر، وعن بحثه المُضني عن مرفأ يرسو فيه، خشية من انتهاءه في مصب البحر اللُجي حيث يفقد عذوبته..

لطالما ودت لو تجمع عُنصري الرخاء والمرح والانطلاق مرة أُخرى إلى حياتها، النهر والحقل..

منذ غادرت الحياة البسيطة إلى تلك العمائر في سن السابعة وهي تشعر بالغُربة.. لكن هذه اللحظات قُرب النهر عند حقلهم الأخضر كل بضع أيام تُعزيها وتُخفف من حنينها وغربتها..

تُساعدها على التركيز على بحثها العلمي.. حدد لها الدكتور "محمد" المُشرف على رسالتها المراجع والكليات التي ستمدها بالمعلومات والدراسات حول مبحثها..

أرادت أن تُسافر إلى القاهرة للإحاطة ببعض المعلومات والالتقاء ببعض المتخصصين في جامعتها بمجالات الزراعة والجيولوجيا والهندسة لتحسين رسالتها، وإتقان عملها فيه بما يُوجب لها درجة الامتياز مع درجة الشرف..

عرضت على والدها الأمر، مُتعشمة في موافقته، رغم أنه قد رفض من قبل الانتساب لكلية العلوم في القاهرة، حتى لا تكون بعيدة عنه وحدها، وهو شديد الحرص على بناته، وبالأخص وهي الصُغرى.. ورضخت له راضية بما قد تُوفره كلية التربية بالفيوم من قسم الجغرافيا ومنحها لدرجة البكالوريوس في العلوم والتربية في تخصص (الجيولوجيا)..

رمقها الحاج "حسن" بإمعان، وقال لها بحب وأبوة:

ـ يا عزيزتي.. أنتِ تعلمين رأيي في هذه الأمور..

ألحت مستعطفة:

ـ لكن يا والدي أيُكتب على الإناث المكوث طوال عُمرهن في مقرٍ واحد لا يتزحزحن عنه أبداً..

ـ إنكِ تذهبين إلى أي مكان هنا.. ومدينة الفيوم مدينة واسعة، تحوي كل ما قد تحتاجين إليه، ثم أليست جامعة الفيوم فرع لجامعة القاهرة ؟..

ـ هذا صحيح يا أبتي.. لكن جامعتها ليست بها الدراسات والمتخصصين المصقولين جيداً مثلما يتواجدون في جامعة القاهرة..

ـ عليكِ الاكتفاء بما لديكِ..

ـ لن تخرج رسالتي العلمية كما أروم..

ـ ليس لكن أيتها الإناث سوى البيت والزواج..

ـ حتى يأذن الله بالزواج..

ـ إذن فهل توافقين على الزواج ؟

ـ ليس قبل تحقيق طموحاتي العلمية..

هددها:

ـ ستبورين..

ـ بالتأكيد إذا لم أُوفق لمَن يقدر طموحاتي، ويتكافأ معي علمياً..

بصرامة وحسم:

ـ اسمعي.. حتى ينتهي الحديث في هذا الموضوع.. ما دُمتِ في بيتي، فعليكِ الالتزام بقوانيني وحدودي، إذا تزوجتي فزوجك هو المسئول عنكِ، افعلي ما يسمح لكِ به حينئذٍ..

فقالت بنبرة صوت متهدجة:

ـ يا إلاهي.. هذا ظلم يا أبتي..

بحزم وعتاب:

ـ ليس ظلماً يا ابنتي.. إنني حريص عليكِ حرص صانع الجواهر على مصاغه...

سكتت متبرمة، ثم أظهرت تبرمها بدلال قائلة:

ـ من أين لي بزوج الآن يحقق شروطي ؟

ـ العرسان لا يكفون عن التقدم إليكِ !

ـ كلهم لا يروقنني..

ـ كُلهم يُناسبون مستواكِ الحالي..

ـ مستوايا الاجتماعي والمادي، وليس مستوايا العلمي والثقافي..

حفزها بحرارة الاستجداء:

ـ يا ابنتي.. لا يتزوج من الشباب الآن إلا المتيسرين منهم..

ـ كلهم عالة على آبائهم.. ضِعاف الشخصيات والكفاءات..

ـ ربما تجدين فيهم مَن تتطلعين إليه..

ـ ربما..

قالتها بسخط مكتوم، فضت بها الحوار، إذ ذهبت مباشرةً إلى حجرتها كئيبة مُتحسرة خائبة..

***

(4)

اكتفت "رشيدة" بالعمل كمُعيدة بالكلية، صابرةً على إتمام بحثها.. تصبرت بالمراجع التي في حوزتها، وبالدراسات النظرية التي ساعدتها على تأسيس بحثها جيداً حتى يقضيَ الله أمراً كان مفعولا إزاء الأبحاث العملية المتعلقة بموضوعها..

في تلك الآونة استقدمت الجامعة مُعيداً بكلية الزراعة من جامعة القاهرة، شاباً يسمى "ماجد صبري"، لتدريس موادها لطلبة كلية الزراعة بالفيوم..

وقد حضر في أول اجتماع (الدكاترة) والمُعيدين في الجامعة برئيسها.. كانت "رشيدة" موجودة بطبيعة الحال، وللوهلة الأولى، وعندما رأت "ماجد" انتابتها أحاسيس إعجاب تجاهه، برغم تجهمه، وتحركه وكلامه المُقتضبين !..

على سبيل الفضول، سألت عنه، فعرفت تخصصه في زراعة أراضي حوض النيل.. وهنا برقت عينيها، ببريق العلم الظافر..

وجدتها فرصة للتعرف عليه، وتوطيد أواصر المنفعة العلمية، فبعد انتهاء الاجتماع خرجوا إلى باحة الجامعة، تقدمت إليه، وعرفته على نفسها، ويديها بجانبها:

ـ رشيدة حسن.. مُعيدة بكلية التربية قسم "جغرافية" تخصص "علم طبقات الأرض"..

سبقت عينيه إلى يديها قبل أن يرفع يده للمصافحة، فاكتسى وجهه بشبح ابتسامة، التقطتها هي، وفسرتها في خُلدها بأنها ابتسامة إعجاب، لولا أنها كذبت نفسها بما اصطنعه من اعتداد تلقائي، شوش به على انطباعات وجهه، قائلاً:

ـ أهلاً وسهلاً.. "ماجد صبري"، زميلك بكلية الزراعة، قسم الأراضي والمياه..

سألته مباشرةً سؤال الشغوف بالعلم:

ـ هل لها علاقة بحوض النيل ؟

ـ بالفعل.. إنها محض تخصصي..

ـ رائع.. إذن سأحتاج تخصصك لمساعدتي في رسالة "الماجستير"..

ـ ما موضوعها ؟

ـ إنها عن تأثير العمران على حوض النيل..

ـ جيد.. لكن لتخصصي صلة محدودة بموضوع رسالتك يا آنسة "رشيدة"..

ـ إنه يشمل نصف المبحث.. كما أنني أُدرك أنه يحتاج لتخصصات أُخرى، ولكن الرضا بالمتاح أفضل من لا شيء.. أليس كذلك ؟..

أومئ برأسه موافقاً.. ثم بعد هُنيهة قال في شرود:

ـ لكن هناك مَن هُم أفضل مني في هذا المجال بجامعة الفيوم..

ارتبكت "رشيدة"، ثم قالت:

ـ إنني أعد طلبة جامعة القاهرة أفضل من (دكاترة) جامعة الفيوم..

وابتسمت في مرح، لكنه لم يُبادلها الابتسام، فحاولت تدارك الموقف، سألته:

ـ هل ستساعدني أم ستبخل عليَّ بعلمك ؟..

أومئ برأسه مُستجيباً، مُبدياً تهذيبه:

ـ لا بأس، بأي وقت إنني مستعد للتعاون..

ثم غمغم بشيء من الحُزن:

ـ على الأقل أشعر بمنفعتي هنا..

حاولت التسرية عنه بدافع من أنوثتها، فسألته برقة:

ـ لماذا، هل تشعر بالضيق لعملك هنا ؟

لم يرد، آثر الصمت.. فقالت بحرج:

ـ متأسفة أنني تدخلت فيما لا يعنيني..

فبادر قائلاً:

ـ لا أبداً.. كل ما في الأمر أنهم حولوني إلى هنا، لازدحام الأماكن في جامعة القاهرة..

أومأت ببطء بعين سارحة:

ـ أها.. فهمت..

أراحته لهجتها وحُسن استقبالها، فتابع:

ـ شعرت أنني قد استُهين بتفوقي وبدرجتي الجامعية، ونُفيت بعيداً..

فخففت عنه:

ـ ليس بعيداً جداً.. كما أن جامعة الفيوم فرع لجامعة القاهرة.. لن تضطر إلى نقل انتسابك.. أنت مُعيد بجامعة القاهرة..

بعناد مقهور:

ـ بل إنني مُعيد لفرع جامعة القاهرة..

بمرونة أنثوية ذكية:

ـ لن نختلف في المسميات.. المهم أن هناك من الطلبة مَن يحتاجون لعلمك هنا..

أومئ برأسه مستسلماً..

كانا قد وصلا لمفترق طُرق بين الكليتين، فقالت له بحفاوة:

ـ مرحباً بك في الجامعة أ "ماجد"، وأتمنى لك إقامة مُوفقة وحظ سعيد هنا..

ـ أشكرك أستاذة "رشيدة".. لقد سرّيتِ عني بعض الهم والحزن..

ابتسمت، وابتعدت خطوات قليلة استعداداً للذهاب، وردت:

ـ هذا من دواعي سروري.. مرحباً بك في أي وقت.. سلام..

قالتها وهي ترفع يدها بالتحية بطريقة متحفظة، فبادلها التحية برفع يده محرجاً، وهو يرد:

ـ سلام..

شيعها بنظره المُفعم بالإعجاب..

والذي فَتح في عقله باباً إلى التفكير والاهتمام..

***

(5)

مرت الأيام تلو الأيام، مع كل يوم يزداد إعجاب "رشيدة" بـ"ماجد"، ويزداد إعجاب "ماجد" بـ"رشيدة".. وجاء اليوم الذي أحس "ماجد" بأنه بلغ مرحلة الحب ..!

اجتاحته كل أعراض الحب المعروفة.. تعلق بها، تزداد ضربات قلبه عندما يراها، لا يمل أبداً من الحديث معها، يتطلع بلا حدود إلى رؤيتها، يُفكر في حديثها طوال الوقت.. لا تمر عينيه على أنثى إلا قارنها بها، ولا يجد رُقياً ولا أدباً ولا احتشاماً ولا التزاماً ولا مرحاً تتمتع به غيرها... لا يجد امرأة قد تقتحم قلبه مثلما اقتحمته تلك الشابة..!

أما بالنسبة لـ"رشيدة" فلقد انتابتها هذه الأعراض قبله بفترة..!

بأول فرصة جمعتهم، في حديقة الجامعة، صباحاً، تتألق الأزهار الملونة والأعشاب الخضراء تحت ضي الشمس الوهاج بالجمال والأمل والسرور.. عندما كانوا يتوجهون لكلياتهم.. قال لها مُتحرجاً:

ـ رشيدة.. كنت أود أن أُصارحك بأمر..

التفتت إليه في جدية:

ـ أي أمر.. أفصح..

انتابه حرج، ثم حسم أمره، قائلاً:

ـ لن يتناسب هذا الآن.. فعليّ محاضرة يجب أن أُلقيها للتو..

ـ كذلك أنا..

ـ إذن نلتقي بعدها كالعادة في مجلس الحديقة..

بشغف جاد، وهي ترفع عويناتها على أنفها:

ـ أرجوك.. فهناك بعض النقاط في رسالتي أرغب بمناقشتها معك..

أبدى وجهه ضِيقاً، وقال:

ـ "رشيدة" معذرة.. دعينا لا نتحدث اليوم فيما يتعلق بالرسالة..

بادلته نظرة عميقة حائرة، وما لبثت أن أومأت برأسها علامة الإيجاب..

ثم افترقا، واتجه كل واحد لكليته لإلقاء محاضرته وهو مشغول البال..

بعد انتهاء المحاضرةِ الأُولى.. ذهب من فوره لمقابلتها عند مجلس الجامعة في الحديقة، وانتظر، طالباً قدحاً من الشاي.. بعد دقائق وافته "رشيدة" وحيته برقة، فوقف لها احتراماً، وبادلها التحية، ورجاها القعود، فقعدت.. تأمل ثانيهما عيني الآخر.. فبادرته قائلة بقلق:

ـ أهمني الأمر الذي أردت محادثتي فيه طوال المحاضرة.. أخبرني ما هو ؟..

أشار للنادل، ولما حضر، سألها عما ترغب في شربه، فاقترحت شاياً، ذهب الأول، فيما خيم السكون، وهي ترقبه، تنتظر جوابه.. ببطء متلعثم مُفعم بالحرج، رفع إليها نظره، ثم خفضه، وكأنه يجد صعوبة في التعبير:

ـ إنني متردد.. أخشى من رد فعلك...

ابتسمت فيما سكت هُنيهة مُستجمعاً شجاعته، وقال مُستدركاً:

ـ لكنها عبارة عن مشاعر، شئتِ أن تقبليها، وإلا فهي باقية في صدري، دائماً، لن تضمر أبداً..

لم ترد مُباشرةً، فقط تأملته برهة تحاول استشفاف سره، لكنها آثرت ألا تتوغل في أعماقه، وقالت بكل بساطة:

ـ اكشف عما في صدرك.. ستجدني نِعم المتلقي..

صمت بضع لحظات، بدا فيها في شدة ارتباكه.. ثم ألقى نظره على المائدة أمامه، استجمع كل قواه، وقال بنبرةِ أعلى قليلاً من مُعدلها الطبيعي، انخفضت بعد التحكم فيها بالتدريج:

ـ "رشيدة".. إنني مُعجبٌ برُقي عقليتك.. رأيت هذا في تعاملك ودراستك وتصرفاتك.. مُعجب برصانتك والتزامك، معجب أشد ما يكون بثيابك المحتشمة الوقورة، بحجابك الأنيق ذاك.. مُعجب بعويناتك الوهاجة بالذكاء والنبوغ والجمال... لطالما تمنيت أن تكون فتاتي بعوينات..

ابتسمت وخفضت عينيها خفراً، في حين واصل مبتسماً في هيام:

ـ تُثيرني فيكِ أنتِ بالأخص.. أجدها جزء من شخصيتك، ليست تزييناً لمظهرك... أعشق شفافيتك وصدقك إنني مُتيم ببراءتك.. أراكِ كملاك.. أو على الأقل تاج النساء...

اضطربت "رشيدة" بشدة من سيل العسل المنهمر عليها، فلم تحتمل، وقالت في حرارة وخجل عذري:

ـ شاكرة لك يا "ماجد" مدحك البليغ.. أرجو أن أستحقه، كما أتمنى أن أكون عند حُسن ظنك... لكن ماذا تريد أن تقول ؟..

ـ ألم تفهمي بعد.. إنني.. مُعجب بكِ.. إنني أكثر من مُعجب بكِ.. إنني.. أحبك... حباً يختلف عن حب الإنسان للإنسان، بل هو حب الرجل للمرأة في أعلى درجات الإعجاب والتيم...

صمت برهة يُحاول أن يتخلص من توتره بعد هذه الكلمات المنبعثة كنغم سيمفونية في مقدمتها، ثم عاد أكثر عزفاً على الوتر المنشود مُكتمل النغم:

ـ شئتِ أن تقبلي حبي، فأنا عازم على توثيقه وتكليله بالرباط المقدس.. شئتِ أن ترفضيه فهو واقر في صدري، لا يُمكنك أن تمحيه إلا بالعُسر..

بخفر الفتاة الريفية الوردي اكتسى وجه "رشيدة" كآية من آيات الله البديعات إذ كان من الصعب التفريق بينها وبين وردة زَهرية منكمشة على نفسها حياءاً وأنوثةً وجمالاً وجاذبية، ارتبكت جلستها، وأثناء ترقبه لرد فعلها، شعر "ماجد" بأنه ليس أمام "رشيدة" الجامعية، بل "رشيدة" الريفية الصميمة التي قل مَن يتمتعن بصفاتها الأنثوية الأصيلة..

سادتهم لحظات صمت متوترة، مضت كأنها دهر، تغلبت "رشيدة" عليها، استجمعت بديهتها كلها، سألته بصوت مُختلج، وهي تُخفي وجهها بعيداً عنه:

ـ هل تعتقد أن محوه من صدر المُحبة أقل عُسراً ؟..

هنا، وهنا فقط فهم أنها تُبادله الحب.. بل ربما أشد منه.. فهتف جزلاً مبهوراً غير مُصدقاً تحليله لكلمتها:

ـ يا إلاهي!.. أحقاً ؟... لا أُصدق ما فهمته، أم تراني توهمت..!

لم ترد من فرط خجلها، لكنها ابتسمت، فهتف مُبتهجاً بأنفاس مهتاجة:

ـ أنا أسعد إنسان في الوجود.. هل تحبينني حقاً يا "رشيدة" ؟..

بعد لحظات أجابت بنبرة مختلجة، وهي تُباعد عينها عنه حتى لا تكشفها أمامه:

ـ يُقال أن علامة السكوت هي الموافقة..

تهلل وجهه، بدا أن الدنيا لا تسعاه من الفرحة.. فجعله هذا يتشجع، فقال مُستعرضاً بمرح:

ـ إنني إذن شابٌ قاهري.. عمري ثلاث وعشرون عاماً، مُعيد بكلية الزراعة بجامعة القاهرة فرع الفيوم ـ ما زلتُ مُصراًـ ، وأتوقع زيادة مرتبي مع ترقيتي وعملي لرسالتي "الماجستير" و"الدكتوراة".. ولدي شقة صغيرة مؤجرة هنا، عائلتي تعيش في القاهرة، وهي عائلة متوسطة الحال..

ثم توقف لحظة، اضطرب فيها، عاد يُتابع بعدها بنبرة أرق، مُفعمة بالعاطفة:

ـ فهل تكون علامة السكوت الرضا أيضاً لو قلت أنني أريد الزواج منكِ ؟..

تغير وجهها قليلاً، وكأنما تذكرت أمراً لم تعمل له حساباً، نظرت له، فتبدت له الحيرة في عينيها، مما جعله يتعجب، يشعر بالضيق، فيسألها:

ـ "رشيدة".. غريب تعبيرك كرد على عرضي عليكِ بالزواج..

ـ لا أبداً يا "ماجد".. لكن..

ـ لكن ماذا ؟.. ألا تحبينني.. هل ما حصل منذ دقيقة كان سُوء فهم مني ؟..

ـ بالعكس يا "ماجد".. إنني معجبة بك حقاً.. أُبادلك مشاعرك بكل كياني.. أتمنى أن تكون الرجل الوحيد في حياتي كلها..

ـ حقاً ؟.. هذا أكثر مما كنت أحلم به... إذن فلماذا ترددك ؟..

هزت رأسها بأسف:

ـ لا أدري ماذا أقول لك.. الأمر مُعقد..

ـ فسري لي.. ما هو تعقيده ؟..

جاشت نفسها بالدموع.. فاعتذرت منه، وهي تتماسك ما استطاعت، وقفت، ثم أخذت طريقها للانصراف بخطوات مُتعجلة !

***

(6)

بحجرتها، على فراشها، ارتمت عليه، وانفجرت في البكاء...

في الوقت الذي تُحب..

في الوقت الذي يُصارحها حبيبها بحبه لها..

في الوقت الذي يطلب منها الزواج.. أقصى أحلامها تجاهه.. تصطدم أنها أمام مرحلة جديدة لم تُفكر في حيثياتها واعتباراتها من قبل.. لقد تلاحقت المراحل أمام عينيها، كل مرحلة فكرت فيها وعاشت معها بكيانها..

مرحلة طلب الزواج كان آخر ما فكرت فيه.. لكنها لم تتعداها تفكيراً..

الآن عندما عرضه "ماجد" عليها، فكرت بشكل سريع في الخطوات اللازمة لتحقيق ذلك.. احتل عقلها مشاهد الصراع بين "آمنة" و"إسماعيل" زوجها، وبين والدها الحاج "حسن"..

تصورت "ماجد" مكان "إسماعيل"، وهي مكان "آمنة" أختها.. حللت المشهد في عقلها، وقاسته في خيالها... هالتها النتيجة والعقبات !..

وجدت أن أباها سيكون أصعب مراساً مع "ماجد".. حتماً سيشتد.. إنها عاقلة كفاية وخبيرة كفاية لتُدرك ذلك.. هي لا تريد أن تُهين حبيبها، ولا تريد أن تُدمر هذا الحب في بداية تألقه ووهجه وعنفوانه.. لكن هذا هو الواقع المُر الذي تفرضه التجارب السابقات...

انتابتها الحيرة الشديدة، التاع قلبها بالوجع، فزرفت شلالاً من دموعها.. شعرت معها بالكرب العظيم.. فدعت الله أن يُلهمها الصواب والوِفاق..

***

في اليوم التالي.. ذهبت "رشيدة" إلى كليتها.. قابلت "ماجد" هناك.. أقبل عليها بتجهم، وكبرياء، استقبلته بابتسامة مُفعمة بالحب، لم يعد بينها وبينه حاجز بعد مُصارحته لها بمشاعره الرقيقة.. لم يكن من مناص تأثره بابتسامتها، فأُكمل إقباله عليها بنشاط، ألقى عليها التحية، فردت عليه بأحسن منه.. سألها:

ـ هل أنتِ بخير الآن ؟..

ـ الحمد لله.. سامحني يا "ماجد"..

ـ صارحيني يا "رشيدة".. ما الذي ضايقك بالأمس ؟..

ـ صدقني لم أتضايق، بالعكس.. لقد كنت في قمة السعادة.. لكن.. لكني كنت أتمنى أن أنتهي من رسالة (الماجستير) و(الدكتوراه) قبل أن أُفكر في الزواج..

رمقها بعُمق، ثم قال:

ـ هل هذا هو ما ضايقك فعلاً ؟..

أومأت برأسها، باعدة نظرها عن نظره:

ـ بلى..

ـ مع ذلك فأنا لن أمنعك من عملهم، بل سأُساعدك فيهما ما استطعت..

ـ أُدرك أنك ستكون لي نِعم العون..

ـ إذن فدعيني أتقدم إلى والدك، وأخطبك منه..

هتفت به، شاعرة أن محاولتها للتملص من معضلتها خابت:

ـ لا.. لا يا "ماجد".. دعنا نصبر قليلاً..

مال رأسه على كتفه، قُرب صدره، وهو يُفكر، كأنه يبحث عن مُبرر، ثم ألقاه على لسانه، قائلاً:

ـ كلامك يجعلني في شك من صدق مشاعرك تجاهي يا "رشيدة"... أهناك شخص آخر ؟..

هزت رأسها نافية بإمعان:

ـ كلا، أبداً يا "ماجد"... لن أجد أفضل منك زوجاً لي..

ـ هل أنتِ مخطوبة أو مُرتبطة بشخص آخر غير معلوم لي ؟

ـ كلا.. لستُ مرتبطة نهائياً..

أُفعمت نبرة صوته بالحيرة، وهو يسألها:

ـ إذن فما المانع من الخِطبة حالياً ؟..

اصطنعت الابتسام، وحاولت جذبه تجاه وهج العاطفة:

ـ ولماذا لا نصبر ما دام قد ربطنا رباط الحب ؟..

هز رأسه يُعلن عدم اقتناعه، وقال بثقة:

ـ لا يكفي.. لا خير للمتحابين إلا في الزواج..

رضخت للمنطق السليم، وأعلنت فشلها إزاءه، ولم تجد إلا التصريح بنيتها:

ـ بلى.. لكن يا "ماجد"، من أجل خاطري، دعنا نصبر عاماً أو عامين.. هذا رجاء خاص..

على مضض كف "ماجد" عن النقاش في هذا الموضوع، لأنه شعر أن ثمة ما يمنع ارتباطه بها، على الأقل في الوقت الحالي..

وسارت الحياة بجرعة رصينة من الحب..

***

(7)

في هذه الفترة تعرفت "رشيدة" على "ماجد" بشكل وثيق وعميق..

في إحدى جلساتهم قال لها حاكياً عن نفسه بكل ود وأريحية:

ـ منحني والدي الاستقلالية عندما كبرت.. أو ربما كانت اضطراراً للظروف الاقتصادية السيئة في البلاد كلها، حيث أننا من الطبقة الكادحة التي يعمل فيها الفرد بكل طاقته، فلا يكاد يكفي نفسه ليكفي غيره..

الأمر الذي زادها رهبةً، وأوجسها خيفةً من عاقبة تقدمه في الوقت الحالي لأباها، فحمدت تصرفها، حتى ينفخ الله في صورته..

كذلك حضرت محاضراته عدة مرات، فهمت كيف يُفكر، عرفت آراءه في كثير من الأُمور المحظورة !، إنه يتناقش مع الطلبة في كثير من الأمور، يتحدث معهم في السياسة أحياناً !، يُطلق فيها ما يُنفث عن استيائه وسخطه على إدارة البلاد، وينفث عن غضبه من حاله البائس الدفين.. يُعلن عن كثير من آراءه وكأنه يُثريهم سياسياً، ويزيده وعياً بحاضرهم الضارب رأسه تحت التراب...

ـ أتدرون.. سياسة الانفتاح هي التي رفعت أقواماً، وخفضت أقواماً، واستمرت حتى بعد هلاك مُشرعها.. سيدت اللصوص، وازدرت الشرفاء.. هُم لم يسلموا كذلك منها.. فقد تحولوا للصوص طلباً للرخاء.. إنه رخاء مزيف يخوضه ضعفاء الضمير، ويبقى النزهاء فقراء حتى الممات، بعد أن يعدمهم الصراع المرير مع الحياة..

ـ اعتقدنا أن مساوئ مَن سبق ستزول بمجرد اغتياله، بصرف النظر عن اختلافنا مع وسيلة القتل، لكن استمرت سياسته، بل زادت المساوئ فترة وراء فترة..

ـ الحالة الاقتصادية سيئة، للشرفاء.. الشباب يظلون جوعى لنصفهم الآخر حتى وقت متأخر من عمرهم.. يلهثون وراء عُملة تتدحرج على رصيف.. للشارع الفسيح بين الأقدام.. لبلاعة، لمياه صرف، لمياه البحر، تسبح، مصيرها الغرق في أعمق الأعماق !..

ـ مصر !.. أين هو موقعها الإقليمي بين الدول العربية.. أين مكانتها التاريخية والحضارية بين دُول العالم ؟.. إنها تائهة بين عصابة متسلسلة يعبثون بمصيرها ومصير أهلها...

ـ أين هو الفن القديم في الغناء والسينما والمسرح، والإعلان عامةً ؟.. ضاع مُنجرفاً في تيار الزمن الماضي.. إعلامنا الحالي برمته ببساطة عبارة عن منطق معوج مثير للغثيان !..

ـ لا أدري، لكني أرى انقلاباً في المعايير.. الأخلاق الفِطرية تُسفه وتُشوه، الأخلاق السيئة تُبارك ويُروج لها على أنها الشطارة والتحضر والمدنية !.. الدين موضة قديمة، الإسلام مجرد عبادات متخلفة، فكرته صادرة عن بشر لا لزام لاعتناقها، ما دام يملك المرء عماراً مع الله.. هل يُفسر لي أحدكم ماذا تعني كلمة "عمار" ؟!..

ـ هل تجدون ما تتعلمونه هو التعليم الأمثل ؟.. التعليم يتضاءل يا سادة كل يوم في مصر.. سواء التعليم الابتدائي أو الإعدادي أو الثانوي.. أو حتى الجامعي.. إننا نُولد أذكياء، لنتعلم الغباء.. هذا واقع ما يحدث في سياسة التعليم المُتبعة حالياً.. إن ما

يُصنع في تعليم هذا البلد لهو أكبر جريمة تُرتكب فيه.. لقد تحولنا من مجتمع قارئ مثقف طواق للمعرفة، مشحوذ بالإبداع والفكر البناء، إلى مجتمع جاهل مشوه مشغول بتحصيل لقمة العيش والتناحر من أجل إحراز أساسياته فقط على أحسن الأحوال..

ـ انظروا إلى بلدكم.. لقد كانت أُولى البلدات في الزراعة.. ماذا أصبحت الآن.. بلدة رأس مالية، خالية من الزراعيين والفلاحين، تستحوذ عليها أدخنة المصانع، ينضم لها الصانعين والمُتمدنين.. اختفت القيم الزراعية، وحلت محلها القيم الصناعية المادية.. قد تعتقدون أن في هذا تطوراً وإنجازاً حميداً، لكن هذه القيم لا تستقيم في أرض زراعية في الأصل، يقوم على فلاحتها آلاف المصريين، ويتقوت على ثمرها الطيب ملايين المصريين.. لا تستقيم هذه المُثل في مجتمع زراعي.. هذه القيم تَرُوج في بلدات صحراوية بعيدة عن احتياجات الكثافات السكانية، لا أن تتشعب في مرابع الطين .. هذا ما نصفه بالضرب في الأرض.. بالتوسع حول حوض النيل.. ليس التقوقع والتطوير على المناطق الزراعية التي صنعها الله قُرب حوضها الطبيعي..

تلك كانت المرة الأخيرة التي سمعت بها هذا الكلام، الذي جعلها تزداد إعجاباً به، ويزداد دعاءها إلحاحا إلى الله عز وجل بإخلاص أن يُهيئ لهم كل الظروف للارتباط، ويُكللا حبهما بالزواج السعيد..

مع ذلك فقد راحت تُحذره من الكلام مع الطلبة عن السياسة؛ لأنها لا تريد أن ينتهي به حاله في المعتقل، فالحيطان لها أذان، والقوة الحالية تعتمد أمن الدولة في تأمين السلطة..

يضحك بقوة، وهو يقول ساخراً، كأنه يسوق طُرفة:

ـ أمن الدولة بدل أن تؤمن للسلطة البلاد والعباد، تؤمن السلطة من المحكومين من أجل نيل مغانم البلاد.. صدقيني هذا ما يحصل يا عزيزتي..

فتبتسم بحب، وتهز رأسها علامة عدم الجدوى..

لكنها استطاعت أن تُلخص كل مناقشاته مع طلبته بأنها استياء عارم طافح من صدر مهموم، ظهره مُحمل بالبلايا والأعباء، قدمه رازحة بالأحابيل والمشاكل المُتشابكة..!

***

(8)

ربما كانت المرأة أكثر تطلعاً من الرجل للزواج، خاصةً مع طبيعتها المُفعمة بالحب والحنان والحاجة إليهما، عبر تأطيرهما في إطار ذهبي منقوش بإبداع، يجمعها بحبيبها؛ لتتدفق له بكل صوره وسلوكياته في رحب ورحابة وسعادة..

إلا أن "ماجد" بدا أكثر اشتعالاً لعاطفته، وانشغالاً بصاحبتها، وتلهفاً لتأطير علاقته بها..

باستمرار كانت "رشيدة" مترقبة لإنجازات "ماجد" وترقيه في مجاله، وتشعر في ذات الوقت بعذاب مبين يُهيمن على نفسيتها وحياتها..

في ذات يوم.. بينما كانا معاً في أحد حجرات الدرس الفارغة، بكلية الزراعة، كان "ماجد" يعرض لـ "رشيدة" على لوح الشرح بعض النظريات الخاصة بمستقبل حوض النيل مع تقدم العمران عليها، شافعاً إياها بإحصائيات صادرة عن قياسات رسمية قامت بها مراكز بالقاهرة، زارها أثناء إعداده أبحاثاً لكليته أثناء دراسته... كانت هي تكتب على أوراقها مُتابعة له في اهتمام وتركيز شديدين لما يطرحه عليها..

بعدما استوعبت هذا الجزء، شعرت بالجزل والاغتباط؛ لتقدمها في مُبحث الرسالة، فقالت له في زهو:

ـ ياه.. الإنجاز في الرسالة يمنحني شعوراً ممتعاً للغاية..

فلوح قائلاً في مرح فكاهي:

ـ متى أشعر أنا أيضاً بالإنجاز ؟

ردت ببراءة:

ـ هيا إذن.. أين موضوع رسالتك ؟..

ـ لدي موضوع أقوم ببحثه، لكن هذا ليس ما أقصده.. إنني أقصد أمر الزواج..

بأسلوب جذاب:

ـ أها..

اقترب نحوها، وهمس في رجاء:

ـ متى أُنجز مرحلة في مشروع زواجي ؟..

لم ترد، فتابع في هيام:

ـ ألا تفهمين يا "رشيدة"، أنتِ أهم إنسانة لي في هذه الدنيا.. أريد الاستقرار معكِ.. حياتي هنا تتلبد بسببك بعد أن انقشع تلبدها بسببك أيضاً..

لم تستطع التحمل، فقالت بعتاب خائر بنبرة مُعاناة:

ـ وبعد يا "ماجد" ؟..

استعار نبرتها:

ـ وماذا بعد معكِ أنتِ يا "رشيدة".. لستُ مُقتنعاً بتاتاً بتبريراتك..

لم ترد، انتابها عذاب داخلي فضحه وجهها، في حين استمر هو بالضغط عليها:

ـ هناك ما توارينه عني.. لو تُصارحيني يا "رشيدة".. صارحيني..

لم تستطع أن تحتمل، فقالت وهي تتماسك بقدر ما تملك:

ـ لا أريد أن أهينك.. إنني أحـ.. أعزك كثيراً.. لا يُمكنني أن أُعرضك للإهانة..

ارتسمت على على وجهه معالم الدهشة:

ـ إهانة ؟!..

سكت قليلاً كأنما يستوعب الكلمة، ثم سألها في إمعان:

ـ أي إهانة يا "رشيدة" لا سمح الله ؟..

تابعت، وكأنها لم تسمعه:

ـ أنت لا تستحق هذا يا عزيزي..

بإصرار ضاغط:

ـ "رشيدة".. بالله عليكِ أخبريني بما تخفينه عني..

أفلح ضغطه، وبدموعٍ حارة، ونبرات متهدجة قالت متهكمة، بحركات منفعلة، وكلمات مُتقطعة:

ـ في الحقيقة يا "ماجد" أن والدي نمت لديه ثقافة المدنية.. ليس هو وحده.. الجميع هنا اعتنقوها كما لاحظت.. في طور المدنية تغلغلت هذه الثقافة في مجتمعنا.. إنهم لا يُزوجون بناتهم إلا لمن يقبض مُرتباً كبيراً، لديه شقة، ويستطيع تقديم مهر كبير يضمن حقوقهن.. لا تتصور ما لاقيته أختي "آمنة" من عذاب، ما لقيه زوجها من عنت وجُهد لإتمام الزواج..

تراخى في مقعده، وهو ينظر لها بعُمق حزين، وقال بنبرة هادئة بطيئة:

ـ إذن فهذا ما تُخفينه.. لا تريدين أن تُعرضيني لأباكِ..

تخاذلت نظرته، نكس رأسه في خزي.. وبسرعة اقتربت منه في حنان، حثته بحب:

ـ ارفع رأسك يا "ماجد"..

ثم ساقت مُعتقداتها، وكأنها تُصححها له، بنبرةٍ واثقة مُنتعشة:

ـ لم أقل أن حالة مجتمعنا على صواب.. إنها لا تقر أعين شيبة ولا شبيبة.. شبيبتنا أحق بالسعادة والمرونة معهم.. صدقني.. برغم تعليمي ومواكبتي للتقدم، لكنني أكره هذه الحياة المُتكلفة.. أشعر أنها مزيفة، لا تتواءم مع فطرتنا...

أعطت مساحة للتفكير في كلامها، ثم توجهت إليه مستأنفة حديثها بتمنٍ:

ـ لو أملك لتزوجتك من الوهلة الأُولى.. لكن الآباء لهم قُدسية لا ينبغي مُناوشتها..

بنبرةٍ هادئة تتعالى على الانكسار:

ـ لا بأس يا "رشيدة".. إنني متفهم.. إنني فقط حزين على ما وصل إليه مجتمعنا.. أشعر الآن بحاجز قد نمى بيننا..

بتصميم جارف:

ـ كلا يا "ماجد".. لا شيء سيُفرق بيننا، ما زلنا على الوداد..

بتساؤل حائر:

ـ كيف يا "رشيدة" ؟!.. كنت أبغي الخِطبة على الأقل.. هذا ما كنت أزمعه من تقدمي لأبيكِ.. أنا لا أحب أن ينظر إلينا الطلبة نظرة مقيتة، على الأقل أريد الحفاظ عليكِ من ألسنة الناس..

ـ يا عزيزي.. لسنا صغاراً، إننا راشدين..

وبحياء عذري، غمغمت:

ـ حبنا رزين...

واستعادت نبرتها العادية وهي تُتابع:

ـ ولُقيانا مبرر.. أنت أحد أساتذتي وخبرائي في تكوين رسالة "الماجستير" خاصتي..

أنعشت قلبه كلمتها عن الحب، فابتسم، لكنها لم تفلح في إقناعه ببقية الكلام، فوقف وراح يتنقل في أجواء الحجرة مُفكراً بعصبية لعدة دقائق.. وفجأة واجهها، واقترح قائلاً بطريقة تدريجية:

ـ اسمعي.. ألا يُمكن أن يُوافق أبيكِ على مد الخِطبة عامين، وفي الوعد سأكون في أتم استعدادي بمشيئة الله..

هزت رأسها نافية، وكست وجهها بعلامات عدم الجدوى، وقالت:

ـ هذا تدبيرٌ لا يروق والدي..

ثم ساقت له بُرهاناً:

ـ أتدري أنه يشترط على أي خاطب لبناته ألا يتجاوز ستة أشهر !.. يقول أن الخاطب إذا تقدم للزواج، فهو مستعد لمتطلبات الزيجة بالكامل، وإلا فهو يصنع من نفسه أضحوكة، ويعبث ببنات الناس..

توقف في مكانه مُفكراً، وقد خاب رجاؤه.. مع ذلك فقد ابتسم، وقال مبهوراً:

ـ يا إلاهي.. منطقه يعجبني..

ثم تقلصت ملامحه، وقال بفتور:

ـ لكن للأسف لا يستوي مع عصر الكساد الصعب هذا..

رفعت يدها اليُمنى علامة التوقف، وقالت بنبرةِ الرزانة والحكمة:

ـ هذا قدرنا.. ينبغي التحايل عليه واستيعابه، بدل التصادم معه..

لم يستوعب مغزى كلامها، فسألها:

ـ فماذا تقترحين ؟..

قالت بتفكير شارد:

ـ علينا التذرع بالصبر بدون رسميات؛ حتى ينفخ الله في صورتك، وتكتمل الأسباب التي تجعله يضمن سعادة ابنته..

أبدى إليها مخاوفه:

ـ وإذا تقدم إليكِ خاطب موافق لشروط والدك أثناء انتظارنا المزعوم ؟..

بنبرة جامعة لبواعث الأمل والسكينة والحب والرومانسية واليقين:

ـ اطمأن، ما دام قد وقر في قلبي امرؤٌ بعينه، فسأُوفي له، ولو ضحيت بحياتي في سبيله..

أغمض عينيه، وهز رأسه مُشفقاً، قائلاً برقة وصدق:

ـ كفاك الله الشر والسُوء يا عزيزتي..

توجهت إليه، وقالت بإصرار وإيمان:

ـ سأنتظرك يا "ماجد".. سأصبر ليس لأجلي.. لكن لأجل أن أغتنم رضا أهلي ومأواك.. إنها السعادة المظفرة.. صدقني..

لم يجد كلامها وَفياً لرؤيته، فقال:

ـ يا "رشيدة" افهميني.. الخِطبة ستحمي كِلانا من متاعب ستقابلنا حتماً أثناء الانتظار..

هزت رأسها بالنفي دلالة على عدم اقتناعها، وقالت بإصرار وتعقل:

ـ بل افهمني أنت.. لماذا نُغامر بالخطبة، ثم نضطر في وقتٍ لاحق إلى فسخها مُرغمين.. ألا تجد أن هذا من العبث الذي لا يليق بعقلياتنا، كما أنه أمر مُثير لإحباطنا في وقتٍ نحتاجه لهِمتِنا ؟..

تعلقت عينيه ثواني بعينيها، وكأنه رأى ما في أعماقها، فشفى روحه، وارتد إلى نفسه متفهماً، ثم نكس برأسه مُعترفاً على مضض:

ـ كلامك كله حِكم...

سادهم السكون دقيقة، ثم لم يلبث أن عاودته فيها نوبة التمرد:

ـ لكن كيف تحكمين بنتيجة قبل الشروع في أسبابها ؟..

جلست مُستكينة على مقعدها، أطلقت عينيها في الفراغ، وقالت ببطء كأنها تنقل من كتاب الأسرار الخفي:

ـ الواقع خير خبير.. لسنا وحدنا في العالم.. تُحيطنا بلايا المجتمع، تمور بنا.. نحن شخص واحد متعدد تسري علينا مختلف الرزايا والخطوب..

ثم التفتت له، وقالت بشفقة:

ـ أتدري يا "ماجد".. لدي كثير من صديقاتي في نفس الوضع.. إحدى صديقاتي الأكبر مني مخطوبة منذ سبع سنوات.. لم تتزوج حتى الآن.. تربطها بخطيبها عِشرة

وحب طويلين.. إن أبويها يتطلعون بجدية إلى فسخ الخِطبة لتفسحة الطريق لها إلى الزواج قبل افتراسها وحش العنوسة الرهيب، يتهمون خطيبها بالأنانية والتقصير.. هل تعتقد أنه بعد هاذين الوصفين سيمكث معها ؟..

نكس "ماجد" رأسه أسفاً وحزناً، كأنه يُراجع نفسه، ثم غمغم قائلاً:

ـ ذكرتِني بأحد أقاربي.. إنه يحب فتاة حباً جارفاً، كذلك هي تحبه، لكنه قطع علاقته بها، لأنه أدرك أنه سيظلمها معه بظلم الحكومة والمجتمع له..

كأنما توحدت رؤيتهم، فقالت بتحنان، مُبررة وِجهة نظرها:

ـ يا "ماجد" إنما أفعل ذلك حفاظاً على مشاعرنا المقدسة المتبادلة.. لا أريد أن تنتابك ثمة مشاعر سلبية تجاه والدي..

استجاب لنبرتها اللطيفة ولمُبررها المُقنع، فآزرها قائلاً:

ـ لن أفعل أبداً يا حبيبتي.. سأُصارع الحياة من أجلك.. ليُساعدنا الله..



(9)

مرت شهور.. لم تعد "رشيدة" تلقى "ماجد" كثيراً في الآونة الأخيرة، إنه يقوم بمحاضراته، ثم يخرج مباشرةً إلى عمله في إحدى الأراضي التي يُشرف على زراعتها من قِبل العُمال، التابعة لمُزارع سابق، مُقاول ومن ذوي الأملاك والمباني حالياً..

لم يكن الرجل مُهتماً بها، يُولي مبانيه الأهمية القصوى.. رغم أنها قُرب ضفاف فرع النيل، وعدم جدواها للبناء حالياً لكان استثمرها الاستثمار الأجدى.. لكنه استطاع ألا يتغاضى عن استثمارها بالطريقة المُثلى التي تدر عليه زيادة من مال.. لذلك وَكَّلها لمدير لها يُشرف عليها ويرعاها، على أن يتسلم منه في موسم الحصاد نسبة كبيرة مُتفقين عليها من الأرباح..

ظل "ماجد" على هذه الحال طويلاً.. مشغولاً دائماً، مُرهقاً باستمرار، لا يُمكنه أن يُكمل رسالته لـ"الماجستير"، كذلك لم يكن الوقت يسمح له بالتواجد مع حبيبته "رشيدة".. لكنه أخيراً وبسهولة، استطاع أن يُقنعها بأن تحضر معه لرؤية الحقل الواسع الذي يُديره ويُشرف عليه.. فذهبت معه تُرافقها عدة أدوات للقياس، فكرت أن تستخدمها هناك لتخدم بحثها...

ما أن أطلت عليه حتى أُخذت بمنظره الخلاب، منذ سنين مديدة لم تنطلق عينيها في الخلاء الرحيب ذاك.. انطلقت فيه بمرح طفولي !، استغربه "ماجد"؛ ربما لأنه لم يلمس هذا الجانب بها من قبل..

عند العصاري.. جلسا سوياً جانب شجرة صفصاف متاخمة للنهر، أعادت إليها ذكريات الطفولة بما شملتها من مظاهر ومشاعر عميقة، خاصة بشجرة الصفصاف الكائنة كذاك قُرب النهر بحقلهم القديم.. قصت عليه ذكرى حياتها في الطفولة، كيف اختلفت قبل أن تبلغ الثامنة من عمرها، كيف تتمنى أن تعيش حياتها هنا في حقل مثل هذا... قال لها بنبرة حب حالمة:

ـ لو نُكَوِن حياتنا هنا مثلما كونها آبائنا وأجدادنا، أبني داراً من الطين، مُكون من طابق واحد أو طابقين.. وأجعلكِ أميرةً عليه.. يااااه...

جاشت نفسها بتأوه التمني والحلم الآسرين ذاك... التفت إليها فجأة، وسألها مرحاً:

ـ لكن هل يليق بمقامك يا أميرة ؟..

عوجت رقبتها بأسلوب فكاهي:

ـ هل تمزح ؟.. عشت حياتي يُرافقني هذا الحلم الذي طالما راود مخيلتي ووجداني... لكن..

بترت عبارتها، بكلمة لا تحتمل الزيادة عليها بأكثر مما تُوحيه من خيبة التمني.. التقط منها هذا الإحساس المشترك، المُتفق بينهما، فأكمل نيابةً عنها:

ـ بلى، (لكن).. أباكِ لن يرضى أبداً أن تعيشي تلك الحياة البدائية الحقيرة..

شردت، كسا التفكير وجهها، وهي تقول:

ـ لن تكون بدائية.. برغم ذلك فهو لا يحتقر الزراعة، لكنها مقرونة بمخيلته عن الفقر والمشقة.. المدنية ذات سُلطان على مثل هذه العقليات العتيقة.. لا تنسى أيضاً أن حياتهم المبكرة كانت خالية من إمكانيات الزراعة الآن.. إنه مُنبهر بثقافة المدنية وتقدم تقنياتها، انتماءه لهذه المدنية يجعله يشعر بالفخر دوناً عن آبائه وأجداده.. إنني أعذره..

ـ ومَن يعذرنا يا "رشيدة" ؟..

قالها بضيق وأسف شديدين، فاقتربت منه بحنان وحب، فأدار وجهه بعيداً، فقالت بهمس بنبرة احتضان:

ـ عزيزي لا تعتقد أنه غائب عن إدراكي جهدك الحالي وتفرغك للعمل غالب الوقت.. إنني أدري أن هذا من أجلي..

ثم اعتدلت كما كانت، وخفضت بصرها حياءاً وقالت:

ـ لا تتصور مدى سعادتي وفخري بك يا "ماجد".. لكن بالنسبة لوالدي، فمهما يكن فهو أب.. أب لا أُحبذ أبداً أن أعوقه، أو تحضني الظروف أن أفعل.. لهذا لا أريد أن يتصادم مُختاري بأبي.. لأنكما أحب شخصين في حياتي..

تنهد "ماجد" بإرهاق، وقال في بُؤس مرير:

ـ يا "رشيدة.. لا مَلامة.. إنني فقط أشعر بالهوان والوصب والقهر.. أحتاج للمرأة التي اخترتها؛ لتُساندني كما أتوقع، تحمل دوراً تحمله الزوجة عادةً، لتُعين زوجها على التجرد لدوره في الضرب بالأرض، والسعي في العلم، والكسب للمعيشة..

سكت برهة، فيما تُنصت إليه في شفقة، ثم أردف بكبرياء مُتذبذب:

ـ لا يُمكنني الاستقرار في حياتي وأقوم بكل ما ينبغي عليَّ عمله وحدي.. إنني دائر بين كسب العلم صباحاً، وبين كسب المال مساءً، وبين إدارة معيشتي بمسكني.. لا أطعم طعاماً هانئاً، لا أنام كفايةً، أمرض أحياناً ولا أجد مَن يمد لي بالدواء ليُعالجني، ويهتم بصحتي.. إنني أحمل همي في كل وقت.. إن مسؤولية نفسي كبيرة، لا يُمكنني تحملها وحدي.. لقد تعبت...

بإحباط مرير وحيرة يائسة:

ـ إنني عاجزة عن الكلام.. لا أدري بماذا أُساعدك !..

سادهم الصمت دقيقة، قطعه قائلاً بنبرة الاقتراح:

ـ لما لا تدعيني أتقدم إلى والدك، وأُجرب حظي..

حاولت أن تعترض، إلا أنه لاحقها:

ـ إذا رفض فلا خسارة لدينا، سنستمر في خطتنا..

تجاوبت معه:

ـ ماذا لو وافق ؟.. كيف سيُساعدك ذلك يا "ماجد" ؟..

قال بحماس والأفكار تتوارد على ذهنه، ومن ثم لسانه:

ـ سيكون لذلك نِعم العون.. أُدرك أن عدم ارتباطنا الرسمي يعوقك عن دعمي بامتيازات عديدة.. إنني متأكد من ذلك.. تخطفنا لالقاء، تبريره، وإخفاءه باستمرار.. كل ذلك يُرهقنا، يُحبطنا، ويُعطل دعمنا للآخر كما يجب.. الخِطبة ستُحفزني، سأتلقى دعماً منبثقاً من إبداع أنوثتك.. سيرفع من معنوياتنا، سيُخفض كلياً همك وقلقك من المتقدمين إليكِ...

أومأت برأسها وهي ما زالت تستوعبه، قائلة برضوخ:

ـ أنت مُحق.. كل كلامك أنت مُصيب فيه.. إنني مُقتنعةٌ به... لكنني متوجسة خيفةً من عاقبته..

سكتا دقائق سارحين في الجو من حولهما يقيمان حديثهما، يُفكران بعُمق، بالأخص هي عما تُقرره ويتوقف عليها..

فجأة تنتفض، تنظر في ساعتها بمرح، تستحيل واقفة، وهي تهتف:

ـ يا إلاهي.. لقد تأخرت كثيراً.. يجب أن أذهب الآن.. معذرة..

تلعثم "ماجد"، ارتبك بارتباكها، تبع وقفتها، لكنه بإصرار، صاح قائلاً:

ـ لكنك لم تحسمي أمرنا بعد.. هل أتقدم إلى والدك ؟.. لا أريد أن أفعل شيئاً دون رضاكِ..

قالت بحسم، وهي تُنسق هندامها:

ـ أرجوك يا "ماجد".. لا تُفكر في هذا الأمر الآن.. دعنا نؤجله قليلاً..

وركضت نحو الطريق بمرح..

في حين تركته في أدنى حالة بؤس مر بها..

***

(10)

مر يومان منذ هذا اللقاء.. كان الحاج "حسن" جالساً على مقعده المُفضل بعد تناوله الغداء مع أسرته التي تقلصت بعد زواج بنتيه الكبيرتين، انتهز فرصة تواجد زوجته وابنته الصُغرى "رشيدة" أمامه في جلسة سمر اعتيادية، وقال وهو يُداعب شاربه في بشاشة:

ـ لقد حضر إليّ بالدكان اليوم أحد الشباب، استأذنني في تحديد موعد لحضوره من أجل طلب يد "رشيدة".. فحددت له الغد، مساءً.. ما رأيكم ؟..

ظهرت علامات التبرم على وجه "رشيدة"، انتابها التوجس.. هكذا يُفاجئها والدها كل مدة بقدوم عريس جديد، يريد خِطبتها... دار في عقلها صوت "ماجد" وهو يقترح عليها الخِطبة لتحفظها من هذه المواقف الحرجة، التي تُثير همها وقلقها، وتجعلها تستعد لمجابهة عصيبة أمام والدها.. في نفسها هتفت مُتحسرة:

ـ (ليتني رضخت لنصيحتك يا حبيبي..)

رحبت "زينة" بفرحة غامرة، تبادلت مع زوجها حديثاً مُعتاداً في مثل هذه المناسبات.. لكنه توقف فجأة، وقال قاصداً ابنته:

ـ لم تُخبريني رأيك يا "رشيدة"..

علقت "زينة" على سؤاله بمرح:

ـ لا تحرجها يا "حسن"..

فرد عليها، قائلاً بنبرة مُحايدة مشوبة بالعتاب:

ـ إنني أسألها عن عزمها في الزواج.. فسبق أن رفضت اثنين..

ردت الفتاة، باقتضاب وبدلال في ذات الوقت:

ـ يا أبي.. تعلم أنه ما زال طريق العلم لدي في أوله، لم أنتهي حتى من رسالة "الماجستير".. وأظن أننا تحدثنا في هذا من قبل..

بحزم حاسم:

لن أقبل إلا الذي أرتاح له، وأتقبله، بعدما أتفرغ لهذه المرحلة..

ـ لا بأس يا ابنتي.. هذا ضروري.. لكن الخطبة لن تؤذيكِ بشيء..ما دام يملك المُتقدم تكاليف الزواج وارتاحت له نفسك وتقبلتِه، فلا ضير من الاتفاق على إكمال دراستك، والسير كما تحبين في طريق علمك..

ـ لا أريد أن أشغل نفسي بهذا الآن يا أبي..

ـ يا فتاتي.. أخشى عليكِ العنوسة والكساد..

ـ لا تقلق يا أبي.. سيكون ذلك في حينه..

ـ والخُطاب الذين يتقدمون إليكِ ؟..

ترددت لحظة في الرد، تُفكر في إجابة مناسبة، ثم قالت:

ـ لا ضير من تقدمهم.. وإذا وجدت في أحدهم مَن يُناسبني، وأتقبله.. فهو ذا الذي سأتزوجه..

ـ حسناً.. إذن لنرى ماذا سيكون حظ هذا الشاب في الغد..

ضحكوا جميعاً.. غير أنه وَقر في نية "رشيدة" أن تمنح حبيبها السماح في التقدم لوالدها..

في أقرب فرصة !.

.

***

(11)

كان اليوم التالي يوم جمعة، فلم تستطع مُقابلة "ماجد"، فضلاً عن عدم إمكانية الاتصال به أصلاً..

في الساعة المحددة بالمساء.. حضر الضيف، استقبله الوالد في حجرة الضيوف، بينما كانت هي في حجرتها.. تستعد لاستدعائها من قِبل والدتها، على محمل يشي بعدم الاهتمام، أو بمبالغة في الإهمال، تعد لاستيائها وعدم رغبتها ورفضها للعريس الفارغ، مضطربة الهم..

مرت نصف ساعة، فخرجت بجانب والدتها في المطبخ، والتي ذكرت لها أنها عندما أرادت تقديم المشروب، طرقت باب الحجرة، فأخذه منها أبوها، مُعيداً الباب لوضعه السابق..

مرت نصف ساعة أُخرى.. وفوجئتا بعدها بخروج الأب ومعه الضيف، يُودعه عند باب الشقة، ثم يُغلقه، ويعود للجلوس في الصالة مُتجهماً.. تقترب منه زوجته وابنته في تعجب واستفهام !

بامتعاض أجاب على تساؤلهم الخفي قبل أن ينطقوه:

ـ إنه شاب طموح حقاً، لكنه لا يفي بطموحي في زوجك يا عزيزتي..

رفت ابتسامة فرحة على فم "رشيدة"، في حين تقدمت الأم، جلست بجانبه تستزيده إيضاحاً.. قال بتراخي:

ـ إنه لا يملك شقة مؤهلة للزواج، لا يملك وظيفة تستحق العناء، عائلته عادية تُقيم في القاهرة..

اندهشت "زينة"، سألته في عدم اهتمام:

ـ لماذا تقدم إذن ؟..

ـ يقول أنه يرغب في الخِطبة لمدة عامين، ليضمن أن يُحقق لفتاته كل ما يحلمان به..

لم تكترث "رشيدة" بباقي الكلام، همت أن تُغادر الصالة إلى غرفتها، لكنها توقفت وأبيها يقول لها في تهكم:

ـ أعتقد يا "رشيدة" أن هذا يتناسب مع عدم رغبتك في الزواج حالياً..

استدارت لتواجهه، وهي تحاول إخفاء سرورها، وقالت في جدية:

ـ سيأتي حتماً نصيبي في توقيته حتماً يا أبي..

وهمت مرة أخرى أن تعود لحجرتها، لكنه استوقفها مرة أُخرى، قائلاً:

ـ على فكرة يا "رشيدة".. إنه يقول أنه زميلك في الجامعة، يعمل مُعيداً بكلية الزراعة، وهو مُعجب بكِ للغاية..

لم تكد تسمع ما قاله، حتى تسمرت في مكانها، وقلبها يخفق بقوة، استدارت ببطء، والصدمة ترتسم على وجهها، بعين زائغة، وبصوت مبحوح سألته تتيقن:

ـ ما اسمه يا أبي ؟..

ـ اسمه.. آه.. لقد ذكره لي.. إنه "ماجد".. "ماجد صبري"..

انتابها دوار عاتي مُفاجئ، لكنها تماسكت.. حاولت أن تتحدث فتلعثمت، قائلة:

ـ حقاً ؟.. بلى.. إنه.. ياه.. هو.. أعرفه.. ألتقيه أحياناً..

وفي نفسها هتفت بكل الغضب:

ـ (لقد فعلها المتهور.. فعلها دون علمي.. كم هو عنيد.. عندما أراه سيكون له معي شأن آخر..)

عادت إلى مجلسها قُرب أبيها في حسم، سألت متصنعة الفضول فحسب:

ـ وماذا قال يا أبي ؟..

بينما قامت الأُم للرد على الهاتف الذي رن فجأة، أجابها في ود استحلاه:

ـ لقد حكى لي عن حياته وعمله وأفكاره وطموحاته.. بلا شك هو حلو المعشر، مجتهد..

بحذر وبنبرة حيادية ما استطاعت، سألته:

ـ وماذا كان ردك عليه ؟

فند لها كلامه، كأنه يُلقمها الطعام بقدر ما يكفيها:

ـ لقد صارحته بمتطلباتي في زوجِ ابنتي.. هذا كل ما يُمكن أن يطلبه أب من شاب يتقدم لابنته في ظروف هذا العصر... لقد تفهم.. حاول أن يلح عليَّ في أمر الخِطبة.. لكنني أصررت على مطالبي.. لم يكن أمامه غير أن يستأذن واعداً إياي بأنه سيكون عند حُسن ظني.. هكذا فحسب...

تغيرت نبرتها، وهي تقول:

ـ لكن يا أبي ألم يكن من المُفترض مُقابلتي له.. أن تتحرى رأيي فيه أولاً ؟..

فاجئه ردها، ثم برر بحزم:

ـ ظننتنا متفقين على هذه النقاط يا ابنتي.. أنا أطلب أمور لازمة، وأنتِ ترفضين الزواج حالياً.. وإذا انعدمت متطلباتي فيه، فلا لزوم لرأيك فيه..

احتدت نبرتها درجة:

ـ يا أبي.. لقد أخبرتك من قبل أنه عليَّ أن أتقبله، ولا يهمني غِناه..

علا صوته درجتين قائلاً في تهكم:

ـ ماذا ستفعلين بفقره وعوزه ؟.. هل ستظلين مخطوبة له طوال حياتيكما ؟..

رقت لهجتها درجة، قائلة تأتلفه:

ـ يا والدي أقل المتطلبات كفاية لحياة سعيدة..

استجابت نبرته لنبرتها درجة، وإن لازمتها الحدة، وهو يقول:

ـ يا ابنتي أي منطق هذا.. الحياة التي نعيشها الآن تستلزم رجلاً مُقتدراً ليُواجه غلائها المُتزايد يوماً بعد يوم.. كيف ستعيشون في سعادة.. كيف ستعيشون أصلاً ؟..

حاورته بضراوة:

ـ كيف عشت مع أمي في بداية حياتكما، وقد كانت بسيطة للغاية ؟..

ـ الأمر يختلف تماماً.. في الماضي كانت الأمور كلها بسيطة، لا غلاء، كنا نستطيع أن نعيش على سجيتنا.. أما الآن فمظاهر الحياة تطورت، تطورت مطالب الناس كلها مع تغير الظروف الاقتصادية والحروب والانفتاح الثقافي والعلمي والحضاري.. إنني أقول ذلك وأفهمه برغم ضآلة درجتي العلمية.. في هذا الوقت إن لم تكوني مقتدرة، فلن تعيشي..

أرادت أن تحثه على التفاؤل:

ـ الأمور ستتحسن..

بحكمة بالغة مشوبة بالتحذير رد:

ـ الأمور لن تتحسن.. إنها تزداد سوءاً.. إن البلاد تنحدر للهاوية صدقيني..

ـ أنت يا والدي مَن تقول ذلك، وأنت مبهور بالمدنية وتُساير توابعها..

هدأت نبرته مع مناورتها، فقال بعُمق:

ـ بلى يا ابنتي.. ينبغي أن أفعل.. إن لم أفعل سأُذوى مع الماضي.. ستدوسني عجلة الحاضر الهادرة.. إنها لا ترحم، يجب أن أُساير هذا الانهيار، وإلا اصطدمت به في الصعود.. سقطات وقائية احتسبها.. لكنها تحمينا.. يا ابنتي اثنان لا يُمكنهما مُقاومة هذا الانهيار.. ضعيف لم يتقوى ليُجابه الغابة.. وحالم يعيش في الماضي يتمسك به وبمفرداته..

بنبرة مقهورة رافضة:

ـ هذه هي المرة الأُولى التي أفهمك.. منطقك عجيب يا أبي.. مع أني غير متفقة مع كل ملابساته وفروضه.. تبدو لي كفيلسوف مبتدئ..

لم يفهم معنى كلمتها الأخيرة، أيعتبرها مدحاً أم ذم ؟، فتجاهلها، وقال مُتعنتاً:

ـ على كل حال.. إنني أدرى بمصلحتك.. ستعلمين صدق أبيكِ بعد حين..

ثم استدرك بنبرة مُستهجنة بعد برهة:

ـ ثم أخبريني هنا.. ما الذي غير رأيك هكذا سريعاً في لحظة، وقد كنتِ قبلها مُستحسنة لمغادرته ؟

بنبرة متهدجة تُوشك على الانهيار:

ـ لأنني.. لأنني أراه يستحق فرصة.. إنه شاب ممتاز..

نظر إليها مُطولاً، ثم خف انفعاله قليلاً.. استشف مشاعر ابنته الرقيقة، فاقترب منها في حنان، قال لها بنبرة رقيقة:

ـ يا ابنتي.. يجب أن تُحكمي عقلك، وليس قلبك.. إنني أفعل ذلك لصالحك.. إنني أب.. لن تُدركي معنى ذلك إلا عندما تُصبحي أُماً بإذن الله..

ترقرقت الدموع في عينيها، وقالت بصوت متهدج:

ـ لكن يا أبي.. الرجولة لا تُقدر بالمال..

ـ لا شك.. والمال يدعمها، هو عُنصر ضروري لاستمرار الحياة في هذا الزمن الصعب..

ـ أجد صعوبة في تقبل هذه المعادلة.. لو صدقت فلا معنى لعيش الإنسان بأحاسيسه وفؤاده ووجدانه..

ـ الإنسان لديه عقل يا ابنتي، يُلجم به أحاسيسه وجوارحه حتى لا تتجاوز حدودها بما هو مرسوم أمامها.. وإن تخلى المرء عنه ضاع بانفلات أحاسيسه وجوارحه من عِقالها..

لم تستطع الرد على ضرباته المتلاحقة، فوجمت وشردت.. لم يكن في إمكانها استيعاب المزيد.. لم تستطع المكوث في موضعها أكثر من ذلك أمامه، فقامت، مستأذنة في المغادرة إلى حجرتها..

سمح لها، ثم دعا لها الله أن يهديها ويسوق لها الخير أينما كانت..



(12)

في اليوم التالي أعطت محاضرتها لطلابها بذهن في غاية الشرود والكآبة..

بعد أن أنهتها، خرجت إلى الرواق، فوجدته أمامها.. ما أن رآها حتى تنفس الصعداء، واتجه إليها.. نظرت إليه في عتاب مرير، انزوى بها في رُكن غير مُثير للأنظار، وسألها مُبتسماً:

ـ هل تعني تلك النظرة أنكِ عرفتي ؟..

حدجته بنظرة جانبية، وأنّت بصوتها أنة مكتومة:

ـ أها..

علق بصره عليها، فيما لم تتحدث، كأنها تنتظره، فهز رأسه في حيرة:

ـ لقد جربت حظي يا "رشيدة".. لم أخسر شيئاً.. خطتنا تسير كما هي.. هذا ما رسى عليه حتى كلام والدك معي..

نظرت في عينه، وبصوت مكتوم، مُفعم بالغضب، قالت:

ـ لقد عرضتني لموقف عصيب لم أكُن مستعدة له يا "ماجد".. سامحك الله..

ـ لماذا ؟..

ـ ألا ترى وجهي ؟..

ـ أراه، وأخشى أن يكون بسببي..

بإيماءة حاسمة، صدقت على كلمته بصراحة:

ـ بسببك..

رافقها إلى الحديقة، جلسا سوياً على مقعد رخامي، حثها على الحكي، فقصت عليه الحوار الذي دار بينها وبين أبيها... لما انتهت، أصابهم الوجوم فترة، قطعه "ماجد" قائلاً:

ـ لا يُمكن أن تكون هذه هي الحياة.. لو كانت هكذا لصح أن يُخلق المرء وحده ليخوضها باستقلالية تامة، ما كنا خُلقنا معاً..

ـ هذا ما أنا مُقتنعة به، غير أن لساني لم يُسعفني به تو اللحظة.. خُلق الناس نسلاً بعضهم من بعض، متصلين جميعاً، أنساباً وأصهاراً.. لماذا ؟..

ـ تماماً.. لماذا ؟.. هذا هو السؤال... بالتأكيد ليُدعموا بعضهم بعضا.. كيف بنى البشر حضارتهم ؟.. هل تعتقدي أنه يُمكن لامرئٍ ما أن يصنع بناية وحده ؟.. إنها منظومة تعضد بعضها بعضا.. تتكامل، تتآزر، وتتراحم..

سبحت بفكرها بعيداً، وقالت بإيمان:

ـ أتدري يا "ماجد" هذا يُذكرني بحديث مشهور للنبي صلى الله عليه وسلم: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر".. كم نفتقد لهذا المعنى في عالمنا البائس يا "ماجد" ؟..

أومئ برأسه تِباعاً، مُشاطراً إدراكها إحساسها:

ـ بلى يا عزيزتي... صدقيني إنني ميال للفكرة الإسلامية المعتدلة هذه الأيام.. لأن الناس بعدوا عن الإسلام؛ فلذلك تحولت أرضهم إلى غابة.. غابة قاسية لا يُراعى فيها إلاً ولا ذمة، إلا مَن رحم ربي..

ارتفعت معنوياتها لكلامه، وتحمست قائلة:

ـ إنني أتوائم مع هذه الفكرة كثيراً..

ثم التفتت إليه في حيرة:

ـ هل تعتقد أننا الصائبين وجميع مَن حولنا مُخطئين ؟..

ـ يا له من سؤال.. لا تُلقيه بنبرة الشك يا "رشيدة".. عدد من العلماء الذين توصلوا لكروية الأرض حاربهم العالم أجمع، وأنكر قولهم.. قلة قليلة كانت مُحقة، فيما كان العالم كله جاهل يعميهم الضلال..

هزتها كلماته.. واستكانوا بمشاهدة مظاهر الطلاب المُتناثرين بعض الوقت.. عادت "رشيدة" إلى حالتها، سألته في هَم واستياء مخلوط بمحاولة فاشلة للمرح:

ـ ما هو الموقف الآن بعد تسرعك ؟..

نظر إليها شارداً هُنيهة، ثم نحى نظره بعيداً، وقال في غير مُبالاة:

ـ لا شيء..

ثم انفعل قائلاً بمرح:

ـ لا أدري لماذا أنتِ متشائمة هكذا ؟!.. حتى والدك قابلني بكل الترحيب والود، وكان صريحاً معي بكل لباقة..

بادلته انفعاله بلهجة تجمع بين الجد والهزل:

ـ ليس تشاؤماً.. بل هَمّ وضيق..

ـ ما الذي يهمك ويُضايقك ؟..

ـ الذي يهمني ويُضايقني هو أنت.. حالتك المتفاقمة.. عنائك، وغُربتك..

ـ نكس رأسه وقد أعادت إليه همومه، فتمتم مُعقباً برخاوة:

ـ بلى، غُربتي..

أعاد نظره إلى عينيها، وهمس في حب مُرهق، وامتنان المحروم:

ـ كم تُقدرين حالتي من كل زواياها يا "رشيدة"..

وَضعت قبضتها تحت وجنتها في تأمل خجول، وقالت ببسمة هائمة:

ـ إن الحبيبَ للمُحبِ مُحيطُ..

رد لها نظرتها بنظرة امتنان وإعزاز.. ثم قال:

ـ مثل هذه النظرات والكلمات من أعز شخص على قلبي، تمدني بقوة عظيمة لا يمكنك تصورها على الكدح والمثابرة والتحمل من أجلك..

أسعدتها كلماته، فقالت بحماس:

ـ لعلها تُقربنا قريباً..

رد مُتبتلاً:

ـ فلنتضرع إلى الله..

أمنت على دعاءه:

ـ بلى، فالإيمان هو النجاة..

***

(13)

مرت الشهور، مرت ثقيلة كأنها دهور.. معها تيقن الحبيبان تدريجياً صدق منطق وفروض الأب والدها.. كل يوم تزداد صعوبات الحياة، تتأزم وسائل معيشتها.. والحب بينهما يتأجج ويشتعل !

بدت علاماته عند كِليهما.. عصبية، توتر، مُعاناة واضطراب في التصرفات، تشوش في التفكير..

لم يعد الحبيبان يلتقيان إلا نادراً.. حتى احتدم الشوق بينهما.. التقيا بأحد الأيام في نصف الطريق بين الكليتين في الجامعة.. ظهرت علامات اللهفة على وجه كل منهما، سألته:

ـ ترى إلى أي مكان كنت تقصد ؟..

ـ كنت أبحث عن مكان تقبعين فيه، وها قد تم قصدي... وإلى أين كنتِ أنتِ تتوجهين ؟..

بنظرت بشوشة متباعدة:

ـ حيث أكون بين يديك..

ابتسم شارداً بزهو:

ـ يا للمصادفة..

أومأت وهي تُفكر:

ـ مصادفة عجيبة فعلاً..

ازدادت ابتسامته، قال بإيمان وهيام:

ـ بل هو خاطر شوق لقلبين تحابا، افترقا عليه، واجتمعا عليه..

ـ سبحان مَن جمعنا بخاطر واحد..

تمشيا معاً في طريق الزهور، سألها بنبرة معذبة:

ـ وبعد يا "رشيدة" ؟..

تنهدت تنهيدة لا تقل عذاباً:

ـ لا أدري يا "ماجد".. وأنت ؟

بامتعاض، ثم بهيام:

ـ مثلك.. كل ما أدريه أن وِفاض الشغف قد امتلئ، وقد آن تفريغه في محله..

حاول أن يتناول يدها في يديه، غير أنها أبعدتها عنها بتلقائية، واحتفظت بها بيضاء من غير سوء في كفها الأُخرى.. اندهش لها، فتلقت دهشته، وردت عليها بحزم:

ـ معذرة، ليس قبل أن تكون بيننا علاقة شرعية ورسمية.. سامحني..

قال بعد تفكير واستيعاب وإعجاب:

ـ بل سامحيني أنتِ، ليس عليك من حرج.. الحرج عليَّ وحدي.. شوقي غلبني.. لكن صدقاً معزتك في قلبي كل يوم تزيد، إنكِ أميرة في نظري، لها قدسية ورفعة وشرف ونُبل..

بخجل واطمئنان:

ـ يسرني أن تتفهم تلك المعاني، هذا ينم عن ندرة معدنك، وصفاء سريرتك..

بتغريد طائرين موسيقيين بديعين تبادلا العزف في سيمفونية الشوق والحرمان:

ـ يكفيني أن أسير بجانبك، أو أتنعم بوجهك..

ـ هذا مؤقت، ولم يعد يشفي الغياب أو التقطع..

ـ بلى، متى يجمعنا عش واحد يا "رشيدة" ؟.. متى ؟

ـ سؤالٌ ألهج به كالتسبيح بعد كل صلاة..

ـ إنني أتعذب بُعداً عنكِ..

ـ أشكو منك مُجافتك..

ـ مجافاتي أصلتني الجحيم.. الحياة تضمحل أمامي.. تضيق عليَّ، تخنقني..

ـ أيام طوال، أسابيع لا نلتقي، وإذا التقينا فهو مر الكرام..

ـ كنت أتصور أنه يكفي كونك هدف يحثني على العمل بعيداً عنكِ بتفان.. لكن هذه الفكرة مجرد وهم، فالقُرب منكِ بات مطلبي في كل حين، ويشغلني عن العمل بكد..

ـ أشعر بالجفو في روحي، يتسرب إلى حياتي الجامدة أساساً.. أين هو نهر الحب الذي حفرناه معاً وصببناه معاً ؟..

ـ ما أراه إلا قد جف بالتنافر والانشغال.. أصبحتِ في ضفة، وأنا بعيداً عنكِ على الضفة الأُخرى..

ـ دعنا نكسر هذا التعود، وليجمعنا لقاء يومي نُحاول أن نبعد فيه عن الأنظار..

ـ أرجوكِ.. إني في احتياج إليه ليشحذ طاقتي اليومية لحفر تياراً لنا إلى المستقبل..

تعاهدا على ميعاد يومي، وفىَ كل منهما به للآخر..

خمس دقائق، سبع، عشر...

ما يكفي لجرعة حب تكفي المرء لتحسين مزاجه اليومي حتى موعدها التالي..

***

(14)

حددا عدة أماكن للالتقاء، أهم خصائصها البُعد، والتنائي عن الأعين الفضولية، مُفضلين الأماكن الهادئة حيث يصفو الحب وترتوي أطرافه..

أحد الأماكن كانت في محل عمله.. الحقل الذي يُشرف على العمل فيه.. إنه من الأماكن المُفضلة إليها.. يعوضها الحرمان من هذه المعيشة المسدودة من حولها، التي تمنع عنها النسيم والضياء والرحابة والمنظر الحسن، بعكس الريف الأصيل..

مؤخراً، وبإحدى المرات، بينما كانت معه قُرب شجرة الصفصاف، زار الأرض صاحبها؛ ليتفقد العمل فيها..

هرع إليه "ماجد" في اعتداد، وهو يهتف مُرحباً في ارتباك مُفاجَئ:

ـ "عنتر بك" ما هذه الزيارة السارة..

غير أن نظر"عنتر بك" امتد إليها من وراءه بارتياب، فما كان من الأول إلا أن قدمها إليه، قائلاً:

ـ أُعرفك على "رشيدة حسن" زميلتي في الجامعة، قريباً بإذن الله تكون زوجتي..

أومئ الرجل برأسه مُتفهماً، وابتسم بود، مُرحباً بها، صائحاً:

ـ يا أهلاً وسهلاً.. أنرتي الحقل يا أستاذة "رشيدة"..

ردت بخجل:

ـ بنورك يا سيدي..

وبالغ في ترحيبه:

ـ يا له من حظٍ عظيم أن ألقاكِ..

ـ شكراً يا سيدي..

ثم التفتت إلى "ماجد"، وقالت بشبه همس مُعتذر:

ـ أتركك الآن يا "ماجد" لتتابع عملك.. اسمح لي يا سيدي..

فما كان من الرجل إلا أن هتف:

ـ قسماً بالله لا تُغادرين قبل أن نتناول الغداء معاً.. معي الطعام في السيارة سيُحضره العُمال لنتناوله هنا حالاً..

تبرمت، معتذرة:

ـ لكن يجب عليَّ العودة، حتى لا أتأخر..

بإلحاح وإصرار:

ـ أنا أقسمت عليكِ.. هل تنقضين قسمي ؟..

بضِيق وعجز:

ـ كلا، ولكن...

أحبط محاولاتها ببرود مُتودد:

ـ لا داعي للكن.. سنأكل معاً ليصير بيننا عيشاً وملح..

لم يكن من مناص رفض دعوته، والخضوع لضغط إلحاحه..

وبالفعل.. استدعى أحد العُمال، وأحضر طعاماً مُغلفاً من سيارته، كان ينوي تناوله في فيلته القريبة من الأرض، لكنه آثر مُشاركته لكلاهما..!

جلسوا على فرشٍ نظيف عند الشجرة، رصوا عليه الطعام الفاخر، راح "عنتر بك" يحثها على تناول أصناف الطعام باعتناء وإلحاح شديدين..

بعد الطعام، نظرت إلى ساعتها، فتوترت، اعتذرت في ضيق، حتى تُغادر من أجل ألا يغضب منها والديها.. فعرض عليها "عنتر بك" توصيلها، لكنها رفضت، مُنوهةً له أن سيارتها الصغيرة معها.. استأذنت ورحلت وهي تحث الخُطى..

أكمل "عنتر بك" مجلسه مع "ماجد"، مضى يتجاذب أطراف الحديث معه عن "رشيدة"، اضطر الثاني أن يسر له ببعض تفاصيل علاقته معها، حتى يتآزر معهم قلباً وقالباً، ويحفظ سرهما ويُراعيهم بما يتفق وأمانهم..



(15)

مرت الأيام، والأسابيع.. وفي يومٍ غائم.. بمكانٍ آخر بعيد عن الأنظار، حيث يلتقيان أقبلت عليه بوجوم واغتمام، قالت له:

ـ لدي أمر حزين أُخبرك به..

قال باقتضاب وكآبة:

ـ لدي كذلك أمر مُستفز أُخبرك به.. لكن بُوحي بخبرك أولاً..

بهَم واستياء:

ـ لقد تقدم إليَّ أمس رجلٌ يكبرني بعشر سنوات.. به كل مميزات الرجولة بالإضافة إلى الغِنىَ والثراء، على حد وصف والدي..

انتقل اغتمامها إليه، لكنه قال باستخفاف:

ـ أليس شخصاً مثل كل الأشخاص الذين يتقدمون ؟..

ـ كلا.. برز من حديثي مع والدي تمسكه به.. يبدو هذه المرة متمسكاً بفرصة، لا يريد أن تضيع مني.. خاصةً أن عُمري يتقدم، كما أن هناك مشاريع مُشتركة يبغيان إبرامها..

أطرق مُفكراً، ثم قال مُتفهماً:

ـ إذن فهذا هو السبب..

ثم نظر إليها، وكأنه استنفذ كل حيله، وسألها:

ـ ماذا تقترحين ؟..

بحركة تُبدي عدم الجدوى، قالت باستسلام:

ـ لن أفلت منه هذه المرة.. لقد أخبرني بأنه أتاه بالمحل، وسيحضر مرة أخرى غداً في زيارة رسمية من أجل تقابلنا.. وسيدع لنا فرصة للانسجام والتعارف..

جحظت عيناه، وبدا عليه الاستنفار، وبنبرة توجس:

ـ هذا جَد خطير..

بإحباط صدّقت على نتيجته:

ـ بالطبع.. خطير.. سيلغي مشاعرنا إلى الأبد..

نفض رأسه، وأحبط تحليلها:

ـ لا تقولي ذلك يا "رشيدة"..

ثم طافت أمام أعينهم أطياف التمني والأحلام، فغمغم بسخط:

ـ كم أحسد جيل آبائنا.. كانت الحياة بسيطة وسلسة وأسرع منا..

ـ لكنا اقترنا منذ صارحتني بمشاعرك الأُولى منذ عامين، لولا ما أصاب جيلنا من عطب وبطء في كل شيء، برغم أن طاقتنا المُضاعفة أكبر من طاقة الجيل الغابر..

ـ جيل يدفع ثمن مَن سبقوه، والمُتحكمين فيه..

لفتهم دقيقة صمت، ثم باهتمام سألته:

ـ أفصح لي يا "ماجد.. إلى أي مدى تقدمت حتى الآن في ادخاراتك ؟..

ـ هذا ما كنت سأُنوه لكِ عنه في خبري... اسمعي المصيبة... صاحب الأرض يُخونني، يتهمني بالسرقة، والاحتيال !

هالها الخبر، فهتفت:

ـ يا إلهي.. كيف ؟.. ولماذا ؟!

ـ خلاف في الحسابات على نسبة الحصاد، برغم مراعاتي للأمانة بشهادة الله..

لفهم الصمت، ثم تمتم قائلاً:

ـ لا أظن أني سأُكمل العمل معه من بعد..

بنبرة كسيرة، مشوبة ببعض الأمل:

ـ وعملك في الجامعة ؟..

ـ كما تعلمين.. لقد ركزت على عملي في الأرض، ولم يعد لي فراغاً مُدخراً لإنهاء رسالة (الماجستير)، كما أن مُكافآت امتحانات الشفوي والعملي ليست كافية لمتطلباتي..

بحسرة وندب لحظها معاً:

ـ عامان ذهبوا أدراج الرياح..

برر بمُعاناة:

ـ الحياة مغروسة بالأشواك، لا نظفر برحيق الأزهار بقدر جهدنا وكدنا بحثاً عنها..

شملهم السكون، وكأنما غامت الدنيا أكثر من غيمها المُناخي في أعينهما، وأحست أنهم وصلوا للنهاية، فسألته حتى لا تضطر هي للتحمل عبئ الإجابة:

ـ هل ترى أنها النهاية ؟..

امتعض مما تُثيره من جو قاتم:

ـ لماذا تحكمين بالنهاية.. ؟..

ـ هل ترى أملاً بعد هذا السرد لواقعنا الخائب المرير ؟..

ـ أين "رشيدة" المُفعمة بالأمل، والتي طالما صبرتني وحفزتني ووعدتني ؟..

ـ يتسرب اليأس إلى كياني.. أخشى أن ينتهي كل ما بيننا في حالة انكسار عابرة...

ـ وحبنا ؟..

ـ حبنا ليس أقوى من واقعنا..

ـ إن كنتِ تستطيعين المعيشة بدوني، فأنا لن أعيش أبداً مع غيرك..

ـ تملك الإرادة لأنك رجل، لكنني لا أملكها لأني أنثى..

ـ تملكين الاختيار..

ـ إنني ضعيفة..

ـ ضعفك قوة..

تبادلا نظرة عميقة، ثم سألت في حيرة:

ـ ما الذي تطلبه مني ؟..

ـ المُقاومة..

ـ أُقاوم والدي ؟!..

ـ قاومي اختياره؛ لأنه حقك..

ـ إنه يحترم حقي، لكنني مطالبة باحترام رأيه..

سادهم الصمت، وكأنهم تعبوا من الكلام.. يقلبون الحلول والوقائع، بدون جدوى.. يُحاولون كسب وقت في الزمن الضائع !..

عاودته أحلام التمني المتولدة من حالة انعدام الحيلة والرسوب:

ـ لو نستطيع أن نتزوج بلا اكتراث لأهلينا..

ـ لن يكون ذلك حميداً..

ـ أُقر بذلك.. إنه مجرد تمني..

ـ إنهم آبائنا، أعلى منزلةً من البشر بالنسبة لنا..

ـ ما شأنهم بنا إذا لم يرغبوا في التعاون معنا ؟!..

ـ ربما نوعٌ من التحكم، أو هي المسؤولية..

ـ أو هُم أيضاً مغلوبين على أمرهم في هذا الزمن السقيم..

ـ أصبتَ سَهماً من الحِكمة..

ـ لو كان هذا هو الوضع بعد حرب الانتصار المزعومة، لفضّلت حال ما قبل الحرب..

ضحكت مُرغمة، وقالت:

ـ ذِكراها بالغد..

شرد هُنيهة، ثم بنبرة رثاء مُلتهبة:

ـ تسعة عشر عاماً من الانحدار، انحدار يُسلمنا إلى انحدار ألعن..

وانتهى الكلام، إلا من بعض السخط والحسرة..

افترقا يومها بعد تفويض الأمر لله عز وجل..

فقد نفدت من أيديها الأسباب..

***

(16)

في الليلة التالية.. حضر العريس المُنتظَر لمنزل عروسته المُحتملة.. حثها والدها على مُقابلته، دخلت حجرة الضيافة ناقمة نقماً مكبوتاً، لتجد أمامها رجل مألوفاً لها، يقف لاستقبالها...

ـ "عنتر بك" !..

تفاجئت به، هتفت باسمه تلقائياً في دهشة عارمة، فانتبه أبيها إليها، وسأل بريبة مشوبة بالتفاؤل:

ـ أتعرفين "عنتر بك" ؟..

كان "عنتر" في أعلى مستويات الأناقة وحُسن المظهر... لم تستطع الرد على سؤال والدها، فإجابتها معناها الاعتراف بسرها، علاقتها العاطفية الآسرة بـ"ماجد"..

يبدو أن "عنتر" قد فهم هذا، فرد بسرعة:

ـ لدي صداقات في جامعة الفيوم، أطل عليها كثيراً، ولقد انتقوا لي أحد مُعيدين كلية الزراعة المتفوقين للإشراف على حقلي تجاه القاهرة..

صاح الأب مُتفهماً، ثم مُتكهناً:

ـ أها، لابد أنه أحد زملائك يا "رشيدة"..

أومأت بدون تعليق، وهي تنظر إلى "عنتر بك" مُشوشة التفكير..

أشار الوالد عليهم بالجلوس، وراح "عنتر" يُرحب بـ"رشيدة":

ـ مرحباً بكِ يا عروسة.. ما شاء الله عليكِ..

وابتدر الأب التنويه عن المناسبة:

ـ من الجيد أن تكون هناك صلة لكِ يا "رشيدة" ولو طفيفة بالسيد "عنتر"، فهو حاضر اليوم بشكل رسمي لطلب يدكِ..

رد الرجل في زهو:

ـ هذا يُشرفني يا آنسة "رشيدة"..

فاسترد الحاج "حسن" وكأنه ينتمي لصف ابنته:

ـ لكن عليك أن تعلم يا سيد"عنتر" أنه شرط لديَّ أن توافق "رشيدة" أولاً..

تلقى "عنتر" الإشارة التي لا تغمض عن رؤيته:

ـ بالطبع.. هذا عين الأصول، وأنتم أهل الأصول..

استحثها الأب على إبداء رأيها، لكنها كانت ما زالت تشعر بالاضطراب في كيانها إزاء "عنتر بك"، وتقدمه إليها، برغم علمه بعلاقتها بـ "ماجد"!، فردت بإجابة مُماطلة متوقعة:

ـ أحتاج للتفكير، وللتعارف أكثر..

رد الأب بانشراح، وابتذال:

ـ من هذه الناحية لا تقلقي.. سأمنحكما الحرية في التعارف.. إنني أب مرن للغاية..

ضحكا الاثنان، وعقب "عنتر":

ـ هذا صحيح، المرونة تُسهل كثير من الأمور يا حاج "حسن"..

ثم استدرك بثقة، مُوجهاً الحديث إليها:

ـ آنسة "رشيدة" لدي الاستعداد الكامل لأُجيب على كل أسئلتك، وأنا مِلك يمينك في أي وقت ما دامت النهاية مضمونة لي..

سألته وهي تبتسم بسخرية متوارية:

ـ هل هو غرور ؟..

ـ ليس كذلك، لكنه ثقة بالنفس..

ـ لا أحد يضمن النهاية يا "عنتر بك"..

ـ ربما..

تبادلا نظرة متسائلة طويلة.. فقاطعهما الأب، وهو يقول له:

ـ أليس من الأجدى أن تبدأ من الآن التعريف بنفسك ؟..

أومئ "عنتر"، مُستريحاً لمُبادرة الأب، كأنها تُنقذه من عينها الثاقبة، فاعتدل، وقال في اعتداد:

ـ أنا يا "رشيدة " رجل أعمال مُقاول منشآت وعقارات، أملك العديد من المباني، ولدي عدة أراضي قُرب القاهرة..

أضاف الأب في حماس، يُغريها بطريقة مُتوارية، كأنه يُزكيه أمامها:

ـ هذا وهو رجل نزيه، مجتهد، تُوفيت زوجته منذ عدة سنوات، ظل وفياً لها كل تلك المدة، حتى قرر أخيراً أن يتزوج ويستقر..

استرد "عنتر" منه الحديث:

ـ منذ أشهر كنت أبحث عن امرأة مناسبة ذات حسب ونسب وجمال وأخلاق، حتى رأيتك فـ.. في الجامعة.. أُعجبت بأميرة.. فرغبت في الفوز بك، خاصةً أنني لم أجد أحداً أحق بكِ مني، ومنذ رأيتك ارتفعت معنوياتي كثيراً، وارتقت نفسي على وجه يدعوني أنا نفسي للدهشة والعجب..

انتاب "رشيدة" غيظاً هائلاً، كبتته في صدرها، لم تستطع تحريره إلا عندما رن جرس الهاتف في الرُدهة، فاستدعت أمها والدها لتلّقيها بالخارج.. فخرج الرجل وهو لا يجد غضاضة، ولا يحمل أي عبئ نهائي لتركهما وحدهما، بل لعله كان مُتحمساً لذلك.. وفرغت الحجرة من سواهما..

نظرت إليه بتوعد، قالت له:

ـ لا أدري بماذا أُعلق ؟..

قال مُداعباً، وكأنه يترجاها:

ـ علقي بالرضا..

بوجه مُنفعل، ونبرة مضطرمة:

ـ أنت تعلم أن هناك شخص يبغي الزواج مني..

أجاب ببراءة وبرود:

ـ آنسة "رشيدة"، لقد تأكدت بنفسي، ليس هناك علاقة رسمية تربطكما، لذلك تقدمت.. خاصةً أنني مُعجب بكِ للغاية و...

تحولت إليه، وكأنها تذكرت شيئاً أثار روعها واستنفارها، فسألته بتشدد، وهي تترقب سكناته قبل حركاته:

ـ هل افتعلت مسألة تخوينه في الحسابات من أجل أن تظفر بي ؟..

انفعل بأدب مُصطنع، مُحتجاً على إهانته:

ـ هذا جريء كفاية آنسة "رشيدة"..

بصرامة:

ـ لا تظن لأننا تناولنا العيش والملح أنني أُداهنك..

هددته نبرتها، فتخلى عن اصطناعه:

ـ لا أريدك أن تداهنِّي.. أريدك فقط أن تهدئي، حتى أُفسر..

بانفعال شبه مُنهار:

ـ ماذا ستفسر ؟.. تنتابني حيرة مُقزَزَة إزاءك وإزاء تصرفك الدنيء مع "ماجد"..

انفعل إزاء إهانته لفظياً، إلا أنه تماسك مُغيراً أسلوب دفاعاته:

ـ اسمحي لي آنسة "رشيدة"... صدقيني لقد تقدمت بكل براءة وحب..

ـ إذن فلماذا تقدمت وأنت تعلم نيته في الزواج مني، لقد صرح لك بذلك أمامي ؟..

لم يُجيب على سؤالها، وداورها قائلاً:

ـ إنه لا يستحقك.. إنه شخص غير نزيه..

بنبرة مُتحدية:

ـ حقاً !.. وكيف اكتشفت ذلك ؟..

بأسف:

ـ "ماجد" ليس كما تتصورين..

ـ هل ستخبرني أنكم مختلفين في حسابات شركتكم..

ـ وهل صدقتِ نزاهته ودفاعه ؟..

بكل ثقة:

ـ ليس لدي ذرة شك في حكمي عليه..

ـ أنصحك بمراجعة حكمك عليه..

تبادلا نظراً عميقاً، ثم قالت مُتوعدة:

ـ حتى لو كان تشكيكك في محله، فلا أعدك بقبولي لك..

هز كتفيه، وحثها قائلاً بثقة:

ـ فقط امنحيني الفرصة..

بحزن وحسرة، واحتقار خفي:

ـ للأسف لديك فرصة؛ لأنك غني، فيما لم يحظى المسكين بفرصة؛ لأنه فقير..

رد بحزم:

ـ الفقر يعني الضعف، وبفقره سيقودك إلى التعاسة.. لا أظنك كأنثى تُفضلين رجلاً ضعيفاً...

اكتسى وجهها بعلامات العجب والسخط، وقالت:

ـ لكأنني أسمع أبي بصوت مختلف..

ـ والدك رجل يقطر حكمة، إنني محظوظٌ به..

وإذا بالأب يدخل على السيرة، فيسمع الكلمة الأخيرة، فيُعلق بمرح:

ـ بمَن أنت محظوظ ؟..

باحتفاء وبلهجة مختلفة:

ـ بهذه العائلة الطيبة..

تقوم "رشيدة" مستأذنة للخروج بوجهٍ عكر، فيُؤذن لها بلُطف وكأنما لم يُلاحظا تعكرها..

يُكمل الاثنان سوياً حديثهما، متفقين على أن يدعا لها مُهلة للتفكير..

***

(17)

في الصباح.. تجلس "رشيدة" وبجانبها "ماجد"، على مقعدهما المُفضل في حديقة الجامعة، وعلى وجهيهما تظهر معالم الأسى والصدمة.. لم يعبئا هذه المرة بالابتعاد عن الأنظار، كأن مصيبتهما أكبر من مجرد الظهور معاً..

هتف "ماجد" في غضب:

ـ الوغد.. أطاح بي ليحتل مكاني..

صرحت مُندهشة:

ـ لم أكن أتصور أن يكون هو..

بغيرة عاتية:

ـ لم أحب نظرته لكِ عندما اقتحم خلوتنا في الخلاء عند الشجرة.. كما أنه لم يدعوني أبداً من قبل لطعامه، كنت دائماً ألمح استئثاره بالطعام المُغلف وحده داخل فيلته...

ـ تعلل بأنه تقدم بكل براءة بعد تأكده من عدم ارتباطنا رسمياً..

ثم أضافت بسخرية:

لقد بدا أنيقاً للغاية، تغير كثيراً منذ رأيته أول مرة معك في حقله...

بحسرة وعتاب:

ـ أرأيتِ يا "رشيدة".. أنتِ تعلمين الآن كم كنت محقاً في طلب خطبتنا.. كانت ستحمينا من هذا الموقف اللعين الآن..

ابتسمت ضاحكة، رغم ما تشعر به من مرارة، وقالت:

ـ كأنك لم تفعل حينما تقدمت لوالدي !.. ألم يرفضك ؟.. النتيجة واحدة يا عزيزي..

فانتابه الشرود، وردد قائلاً في إحباط:

ـ فعلاً النتيجة واحدة.. إنني إلى الآن لم أحقق من المنجزات الكثير الذي يُحسن من لياقاتي أمام والدك..

بنبرة مُواسية:

ـ لك العُذر.. الكساد يتشعب كشِباك العنكبوت..

أردف بنبرة انفعال، ثم أسف، فكبرياء:

ـ لولا هذا المُستغل المُغرض لكنت استطعت الحصول على مبلغ مقبول من مجهود الحصاد الذي تعبت في تجويده.. لكنه خَونني.. وبالتالي حفظاً لكرامتي فقد تمسكت بنسبتي المتفق عليها، حتى لو بخسني حقي، ومُزمعاً على فض ما بيننا من شراكة..

ـ ماذا ستفعل بعد ذلك ؟..

ـ لا أدري.. إنني محصور الآن بينك وبين دراستي..

بتضحية وعتاب:

ـ دراستك بالطبع أولى.. لا يُمكنك المفاضلة بيننا..

برر مُوضحاً بنبرة عملية:

ـ لم تفهمي قصدي يا بليدة.. أقصد أنه لا يُمكنني التصرف من ناحية العمل الحُر السريع الذي فشل، وبين الدراسة التي تحتاج لوقتٍ طويل.. العمل كان سيضمنك لي سريعاً، والثانية ستؤخرني عنكِ في وقتٍ عصيب.. ستُخطفين مني.. وليس لدي من حيلة للظفر بكِ..

أومأت متفهمة، وقالت برقة:

ـ إنني أتفهمك.. كياني معك، وروحي تؤازرك..

بصوت كسير محبوس لخص مؤكداً:

ـ لن يكون من الصائب تعطيلك بجانبي..

التفتت إليه مُستفهمة بغرابة:

ـ ماذا تقول ؟!..

علت نبرتهم درجتين في حوار ملحمي:

ـ أتريدين أن أكون أنانياً مثل خطيب صاحبتك، وأجعلك من العانسات ؟..

ـ لستُ عانسة ما دُمتُ أستقر في قلب ووجدان رجل يكن لي مشاعر الحب والتقدير..

ـ بإمكاني الزواج في أي مرحلة من حياتي.. مَن سيتزوج امرأة بعد الأربعون ؟..

ـ أنت..

كانت الكلمة كفيلة بحضه على الابتسام الضاحك.. فطأطئ رأسه، وهزه علامة عدم الجدوى، ثم قال:

ـ ما زلتُ أنانياً.. أسلب حقك من الإنجاب في صحتك ورخائك..

بحكمة وإصرار:

ـ بل إنك إن هجرتني تسلب حقي في الاختيار.. تسلبني الرجل الذي أردته.. الذي سيُعينني على تربية أبناءنا..

ضحك مُتعجباً وقال:

ـ تبدين كقطة مُتشبثة بصاحبها..

نوهت بحزن:

ـ حان الوقت الذي أتشبث فيه بأمر يتعلق بحياتي.. لقد فقدت عالماً تحن إليه فطرتي إليه كل حين.. عالم هو جزء من عُمري وتكويني.. لا أظن أن في إمكاني فقد المزيد من تكويني وعُمري..

تجهم، قطب جبينه، وقال:

ـ هذا أكثر رومانسية مما يتقبله الواقع يا "رشيدة".. أنتِ نفسك أخبرتِني أنكِ تفتقرين إلى الإرادة..

بقوة وتصميم:

ـ لكني أملك الاختيار.. أنت علمتني هذا.. جعلتني أُقاوم..

ـ مقاومة أهلك وأبيكِ ؟..

ـ مقاومتي لن تكون بالعنف، سأزاول اختياري وحقي بما لا يصنع الصدام، وبما يخلق الوفاق والتقدير..

شملهم بعدها صمت محموم بالأفكار، ثم بهدوء وخجل قال:

ـ كم يُضايقني أن تقاومي وتُدافعي عني، وأنا قليل الحيلة..

ـ إنني مؤمنة بك.. أعتقد لو أن لديك حيلة لتفانيت في استغلالها بكل قوتك..

أشار لها بأصبعه مُنبهاً، ثم قابضاً بيديه مُطوحاً بها في الهواء:

ـ لا تظنين أنني سأهدئ أبداً، حتى أعفيكِ من مقاومتك، سأتخذ وضع الفارس الذي ينقلك إلى موقع سلطتي الآمن..

ابتسمت بهيام، وقالت:

ـ واثقة فيك يا عزيزي.. وليُدبر لنا الله يا "ماجد"، ليحفظ حبنا، وليسوقنا إلى بر الآمان..

ـ اللهم آمين..

سكتوا هُنيهة، ثم استدرك سائلاً:

ـ لكن أخبريني بخطتك في شأن هذا الوغد ؟..

شردت تفكيراً، ثم قالت:

ـ كل ما يُمكن أن أفعله هو مماطلتهم قليلاً ثم الرفض، فيما تحاول أن تكسب أنت هذا الوقت لصالحنا..

تدبر كلامها لحظة، ثم قال برجاء:

ـ خطة جيدة ليتها تكون حليفتنا في النجاح، وتُختم لصالحنا..

رفعت كتفيها، وقالت بتمني:

ـ ليس لنا غيرها.. تمنى لي التوفيق والصمود..

بدأت معنوياتهم تتحسن؛ إذ عزاهم الأمل، وأحاطتهم السكينة..

***

(18)

عندما رجعت "رشيدة" إلى مسكنها، لمحت "عنتر"، بحُلة أنيقة غير التي رأته بها آخر مرة، خارجاً من محل والدها، الذي رافقه، وكان يتحدث معه بجدية وشِبه هَم، لكنها لم تمكث، فلم ترغب في أن يرياها، وحثت خُطاها نحو الصعود إلى المنزل بسرعة..

بعد قليل صعد والدها.. جلس في الصالة على مقعده المُفضل، وإن بدت جلسته خالية من الراحة، ونادى ابنته بصوتٍ غليظ مُفعم بأبوة خشنة وقاسية، فحضرت وهي في غاية الاضطراب جراء نبرته وطريقة استدعائها، ولما مثلت بين يديه، نظر لها في عتاب ناري، وقال بخشونة:

ـ يا "رشيدة" أنتِ تعلمين أنني أبيكِ، مسئول عن مصلحتك..

أجابت في تلقائية مندهشة:

ـ بلى، بالطبع يا أبي..

ـ تعلمين أنكِ في طور تفكير بعريس تقدم إليكِ.. لن أتحدث عن فائدته لي في أعمالي ومصالحي، لكن هو يملك كل مميزات الرجل التي تتمناها أي امرأة، بصرف النظر عن الرجل نفسه..

بهَت وجهها، وقالت في امتعاض:

ـ لم يكتمل تفكيري إزاءه بعد..

ـ هذا صحيح.. لذلك أريد التحدث معكِ بوضوح..

باحترام بارز:

ـ إنني مُصغية..

زادت نبرته غلظة، ممعنة في الاتهام:

ـ لقد وصلت لي أخبار عن علاقتك بشاب في الجامعة..

تغير وجهها، وهي تُفكر مُحاولة الاستنتاج، ثم قالت:

ـ يا أبي.. مهما يكن مَن أبلغك.. إنه شاب محترم، وهو زميلي في الجامعة..

ظهرت على وجهه علامات التفكير، وإن بدا سؤاله لها مائل للامتحان:

ـ أهو زميلك الذي تقدم إليكِ ؟..

ردت على استحياء:

ـ ... بلى.. إنه هو..

بنبرة عتاب واستهجان:

ـ ألم نتكلم بشأنه ؟، وأظننا كنا حسمنا أمرنا تجاهه !..

حاولت الاعتراض:

ـ يا أبي..

أسكتها، وهدأت نبرته قليلاً:

ـ يا ابنتي.. اسمعيني.. أنتِ عاقلة كفاية.. لمَ تُضيعين أزهى أيام عمرك في علاقة لن تستفيدي منها، بل سينالك الضرر من كل صوب..

ـ وأنا ما زلت أُفكر يا أبي..

علت نبرته مُفحِماً إياها:

ـ لن يستقيم تفكيرك.. فهمت أنكِ تقابلينه باستمرار..

نظرت إليه عاجزة عن الكلام:

ـ ....

قوت نبرته، وزاد انفعاله مُتوعداً:

ـ أنتِ تسحبين ثقتي فيكِ يا "رشيدة".. من المهم أن تتخذي الأمر بجدية.. لقد أشعرتك بأهمية الأمر لكِ ولي.. لكن يبدو أنكِ لا تستمعين.. فضلاً عن أن تبتعدي عن هذا الشاب، فإني أمنعك من مقابلته مرة أخرى.. لكن نهائياً هذه المرة..

بإحساس عارف بالقهر والحنق:

ـ لكن يا أبي..

بحزم طاغي:

ـ كلامي واضح لا يحتمل لكن.. عليكِ أن تخضعي لأمري، لأني أدرى بمصلحتك.. كما أنني أمنعك من الخروج لمدة أسبوع حتى يخلو ذهنك من أجل تفكير صاف.. أما هذا الولد فأتصرف معه بطريقتي..

عصفت بها ثورته، وخشت من توعده على "ماجد"، فهتفت به:

ـ أرجوك يا أبي لا تؤذيه، لن أُقابله مرة أخرى، لكن دعه..

هدأت نبرته اتجاه رجائها درجة، وقال بنفس الانفعال والوعيد:

ـ سأرى حيال ذلك.. ولكني حذرتك.. لا تجعليني أشدد عليكِ أكْثر من ذلك.. لقد هاودتك في كثير من تصرفاتك، وأعطيتك حرية.. لكن يبدو أنكِ تستعمليها بشكل خاطئ..

استبدت بها العصبية إزاء اتهاماته المتوارية خلف كلماته، وبنبرة كبرياء متهدجة:

ـ يا أبي لا تُشكك في ثقتك بي.. إنني شريفة، لم أستعمل حريتك فيما يُشينك.. يعلم الله كم يُحافظ هذا الشاب عليّ مثل أخته تماماً؛ لأن قصده شريف...

بقسوة وعناد مُتوعد:

ـ لا يعنيني كل هذا.. إنه لا يصلح لكِ... إذا عرفت بأي اتصال بينكم فستكون العواقب وخيمة.. لقد صبرت عليكِ كثيراً، وحان الوقت الذي ترضخين فيه لأمري..

هذه المرة عليكِ أن تُفكري جيداً، ويكون ردك بالقبول.. أقلمي نفسك على ذلك.. ولا أريد أي نقاش بعد ذلك بيننا في هذا الأمر..

انتفضت نسقه معها باستغراب مُنهار:

ـ يا أبتي ينبغي أن تهدئ.. لماذا كل هذه الخشونة، لم تكن هذه معاملتك معي..

استجاب لسؤالها، وخفت لهجته كثيراً، وهو يقول في لهجة جديدة تجمع بين الحنو والحزم:

ـ يا ابنتي مهما تصرف الأب مع أولاده، فهو يبغي مصلحتهم.. شدتي عليكِ من أجل صالحك العام.. لستُ ماكث لكِ طوال عُمرك.. أريد الاطمئنان عليكِ كما اطمأننت على أخواتك.. فأرجو أن تُريحيني.. لا أريد الدخول في سِجال مع زوج لابنة من أبنائي أكثر مما فعل زوج أختك "آمنة.. فأرجو أن تعفيني من مواقف سخيفة كتلك.. فكري جيداً في "عنتر".. اتصلي به إذا أردتِ، تعرفي عليه، ألفيه، استأنسي به.. أحبيه، وإنه لأهلٌ لذلك..

لم تستطع أن تنبس ببنت شفة، لقد أُلجم لسانها، فما عادت قادرة على الجدال.. ربما لأنه لم يعد يقبل منها جدالاً، واستعمل أسلوب الأب الصارم الذي قَل ما استعمله معها هي بالذات.. الآن اختفت نبرة الصداقة والود النقاش، وحلت محلها النبرة الآمرة التي لا يُجدي معها أي حوار أو قدرة على الالتفاف..

لقد كونت منذ أقل من ساعة خطة لإزاحة هذا الرجل من طريقها، لكن ما من فائدة.. لقد فشلت للتو قبل أن تبدأ.. كلام والدها واضح.. لن يقبل أي رفض بعد ذلك.. الحقيقة أنها رفضت الكثير، استهترت، ووثقت في علاقتها بأبيها، لكنها كانت مُخطئة؛ لأن علاقة الأبوة طغت في النهاية على علاقة الصداقة.. لأنه في النهاية أب ..!

بعد خروجه من المنزل لجأت إلى غرفتها، ارتمت على فراشها بانهيار نفسي، وانهمار دمعي من عينيها.. ظلت تبكي بقهر وحنق شديدين عدة دقائق، ثم جلست

ووجهها مغرورق بالدموع، وعينيها الحمراوات تحدقان بذهول في الفراغ، كانت مصدومة تماماً مما حدث.. تؤنب نفسها تارة على عدم ردها، وتُتمتم ببضع كلمات سخط تارة أخرى.. بعدما خف حنقها، قررت بوجوب التهدئة من حالة التوتر القائمة بينها وبين أبيها.. ليس من مصلحتها أن يحصل صدام في الفترة القادمة.. فوالدها قد هتك حاجز الود، ولا تريد أن يعتاده، فإن اعتاده فقد يكون ذلك في غير صالحها بالمرة.. لذلك عدلت من خطتها..

ستُحاول مقابلة هذا الرجل لتدرس شخصيته، وتعرف ما ورائه، فهي في كل الأحوال غير مرتاحة إليه، ولا تدري حقاً كيف ارتاح له والدها !.. لذلك ستسير معهم كما يرومون، وعند نقطة معينة، تملك فيها كل الأطراف بيديها ستُفلت ما يقتحم حريتها دُفعة واحدة..

ستُفلته ليتيه في الفضاء بلا مقر أو مُستقر..

إلى الأبد..



(19)

في اليومين التاليين.. استثمرت "رشيدة" احتجازها في البيت، وعملت على رسالتها، مكتفية ببعض المراجع المتوفرة..

أما "ماجد".. فلقد قلق كثيراً على حبيبته، بحث عنها، وعرف من إدارة الكلية أنها اعتذرت، لن تحضر لفترة؛ لبعض الظروف الخاصة..

في نفس اليوم، وبينما كان عقله يُفكر في الداعي الذي منعها عنه، قابله "عنتر بك" في الكلية بابتسامة شبه ساخرة، وإن كانت تُعبر أكثر عن الشماتة.. وقف أمامه في رواق الكلية بعد خروج "ماجد" من محاضرته، مُؤرق الوجه.. لما لفته وجوده، استغرب له وقوفه يرمقه على مقربةٍ منه، فمر به، مُحدقاً فيه بدهشة، فاستوقفه "عنتر"، وقال له بسماجة مقيتة:

ـ أستاذ "ماجد".. أريد التحدث معك قليلاً.. هل تفعل ؟..

نظر له "ماجد" شذراً، ثم نظر له في عينيه يريد استشفاف ما خفي عنه، وقال:

ـ "عنتر بك" ألم تحصل على مُبتغاك من شركتنا، هدرت حقي، واتهمتني بالاحتيال، ماذا تريد مني بعد ذلك ؟..

لم يُعير لكلامه اهتماماً:

ـ "ماجد".. هلا نتمشى قليلاً في هذا الرواق، لتسمع مني بعض النصائح..

بغضب وامتعاض:

ـ لستُ في حاجة لنصائحك..

بحزم وإصرار:

ـ بل يجب عليك أن تسمعها؛ لأني عركت الحياة جيداً، ولدي الخبرة اللازمة لنصيحة مَن يبتدئون حياتهم..

استجاب له "ماجد"، على مضض، وقال بحنق:

ـ أبدي ما عندك..

بهدوء، وبكلمات مُختارة لاذعة:

ـ لن أتحدث عن اختلافاتنا في العمل.. لكني سأتحدث عن حياتك... نصيحة مني، لا تحاول أن تحصل على كل شيء، لأنك لن تستطيع أن تحصل على كل شيء..

نظر إليه بعدم فهم:

ـ ماذا تعني ؟..

ـ أنت شاب في مُقتبل عمرك، ذي قدرات محدودة.. مُحاولتك لغنم طموحك الدراسي والعلمي مع غنمك لمطمح الزواج.. أمر لن يكون في صالحك، سيُجهدك، ولن تطال هذا ولا ذاك..

بصيحة انفراج فهم وإدراك:

ـ آها.. إذن أنت تُلمح لذلك.. إنني أفهم محاولتك لإلهائي عن المرأة التي أرغب بها زوجة..

أخرج نظارة الشمس الأنيقة من جيبه، وراح يمسحها برفق، بينما يقول باستهتار:

ـ فكر كما تشاء، لكنني أنصحك نصيحة لوجه الله..

مُعترضاً ومُشنعاً به:

ـ أنت تنصحني لوجه نفسك، تريد أن تُميطني عن طريقك إليها..

ببرود عاتي:

ـ دعنا نتحدث بعقلانية.. ولا داعي للانفعال.. ما أنصحك به أنت واقع في براثنه.. قل لي ماذا حققت ؟..

رد مُتلعثماً:

ـ إنها مسألة وقت، لا أكثر، وسأُحقق كل ما أريد..

ـ أنت تضحك على نفسك.. إنك لم تحقق أي شيء خلال سنتين، فماذا تتوقع أن تُحقق خلال حياتك، ومتى ؟..

ـ لا داعي للتثبيط أرجوك..

ارتدى نظارته الشمسية استعداداً للخروج إلى شمس الظهيرة، ونظر إليه من خلالها، وقال بندية:

ـ إنه الواقع يا عزيزي.. إنني رجل أعمال وأفهم واقع البلاد جيداً.. إذا أردت الحصول على شيءٍ ما، فإما أن تكون غنياً، وإما أن تضع هدفاً واحداً نصب عينيك، لا أكثر من هدف.. بإمكانك أن تُرتب أهدافك، فتنال الهدف تلو الهدف.. لكن من الصعوبة في حالتك أن تنجح في هدفين معاً..

بدا على وجه "ماجد" التفكير المُطول في كلام الرجل، فأعطاه الأخير الفرصة لذلك، بينما كانا يخطوان إلى الحديقة الشاسعة، يتمشيان في ممشاها الطويل..

لما أحس "عنتر" أن كلامه وجد صدىً لدى الشاب، عمل على إكمال درسه:

ـ لن أتحدث عن نفسي كرجل أعمال.. إنني هنا أُناقشك من أجل صالحك، ولا محالة ففرصي هي أفضل منك، وسبقي لك مَقضي.. إنني أملك الإمكانيات، فيما أنت ما زلت في بداية حياتك، تحتاج للجُهد والتركيز حتى تتوفر لك الإمكانيات التي تتوفر لي الآن..

ونظر في عينيه وكأنه يريد أن يستحوذ على إرادته، ويسحره، ثم قال مُسدداً سهمه:

ـ أنت تعلم أن البنات أسرع زواجاً من الرجل.. الفتاة التي يتعطل زواجها لدينا تُوصم بالعنوسة، وتُصبح عُرضة لكلام الناس السيئ.. لا أظن أن أي فتاة يُمكنها تحمل ذلك، ولا أهلها يُمكنهم احتمال ذلك.. لذلك يعمدون إلى إخفائها عن عيون الناس حتى يقضي الله أمراً كان مفعولا..

وأشاح بنظره عنه، وسأله كأنه يستنفر نباهته:

ـ هل ترضى ذلك للمرأة التي تبغيها ؟..

فكر "ماجد" هُنيهة"، ثم رد مُتحدياً:

ـ لا أرضاه طبعاً، لكننا في عصر المدنية.. لا مكان لمثل هذه العادات القديمة..

بنظرة متحرشة، قال "عنتر" بحركاته المُستفزة:

ـ لستَ في القاهرة لتقول ذلك.. إننا هنا في بلاد ريفية بالأساس، مهما وصلت في مدنيتها.. وحتى أُثبت لك ذلك.. دعني أخبرك.. ما تظن غياب "رشيدة" عن كليتها يومين ؟..

مال "ماجد" برأسه على كتفه الأيمن، وهو ينظر إليه مُتحفزاً، كأنه يتصور وقوع الخبر أو انكشافه على وجهه.. في حين أكّد "عنتر":

ـ هذه هي الحقيقة.. والدها بدأ يشعر باقتراب عنوسة ابنته.. وبدافع من فطرته بدأ يتخذ الإجراءات التقليدية التي جُبل عليها هو وكل أبناء جيله.. وأنت لستُ مُستعداً حالياً للزواج.. لا يُمكنها أن تنتظر هي أحداً بعينه، خاصةً مع عقلية والدها.. مع أول زيارة لخاطب مستوفي الشروط سيقبل به ليعقد قرانها عليه.. ولا أظن أنني مذنب إذا تقدمت وحصلت على فرصتي..

بغضب مكبوت، احمر له وجهه:

ـ أنت تسوغ لقفزك على علاقتي بـ"رشيدة"..

ـ كلا، أنا أنقذك وأُنقذها.. مهما يكن، فإنه في صالحك وصالحها..

ـ لا يُمكنني التسليم بوقائعك..

فازدادت نبرته حدة مع احتجاج "ماجد":

ـ سلم أو لا تُسلم.. لن يُمكنك أن تُغير الواقع بإمكانياتك الحالية.. الواقع يحتاج لَمَن هُم أقوياء مثلي ليغيروه..

كاشفه بما انكشف له:

ـ أنت تتحداني ؟..

ببرود وغطرسة:

ـ بإمكاني أن أتحدى مَن أشاء.. أنظر إلى نفسك، ماذا ستُحقق للمسكينة ؟..

بيقين مُنقطع النظير:

ـ بإمكاني أن أُحقق لها ما تريد، لن تُحقق أنت ما تريده هي..

بوقاحة تتنافر مع هيئته المُستحدثة:

ـ هُراء.. أنت تعيش في الوهم.. حتى ينتهي الكلام بيننا، اسمع هاتين الكلمتين ينفعوك للزمن، ويحفظوك مني..

واتخذ هيئة متنمرة مُحايدة:

ـ الأفضل لك ولها أن تبتعد عنها.. ستظلمها معك، ولا أظنك أنانياً لهذه الدرجة التي لا تُحب إلا ذاتك فيها، وتعطلها عن مصلحتها شأن كل فتاة.. هذا شيء، الشيء الآخر الأهم أنها الآن تندرج تحت أملاكي..

بابتسامة سخرية امتزج بها صوته:

ـ أملاكك !.. لا أظن..

بثقة عمياء، ولهجة مُخيفة:

ـ صدق أو لا تصدق.. كل الأمور تجري في صالحي الآن، كما أن والدها يدعمني ويتبعني ككلب أعمى.. وإنني أحذرك من الاتصال بها، فالذي يمس رغباتي ليس له عندي إلا الفناء.. هل تفهم ؟..

مُبالغاً في سُخريته:

ـ لا أدري مَن الذي يعبد ذاته ؟!..

بتحدي وتوعد:

ـ لقد حذرتك.. ولا تنسى أنني أستطيع أن أسجنك بسرقتك إياي..

حاول أن يقلب تهديده عليه:

ـ لدي شاهد في صفي..

أحبط مُحاولته، وقال بسخرية لاذعة:

ـ هههه، ومعي على ذلك شهود بعدد ما أريد..

شعر "ماجد" بضعفه، ووهنت نبرته، وهو يقول:

ـ إنك تظلمني ظُلماً بيناً..

ـ المهم أنه قد أعذر مَن أنذر، إن يدي طائلة وتبطش بمَن يتحداها..

بعتاب عقيم، ووجع عاتي، ورثاء لنفسه:

ـ لقد ظلمتني مرتين يا "عنتر بك".. مرة عندما اتهمتني بالاحتيال عليك في شركتنا، وتحاول الآن أن تستغل ذلك لتدمير مستقبلي.. وهذه المرة، وأنت تحاول التفريق بيني وبين المرأة التي أحببتها وتمنيتها زوجة؛ لتحوز عليها عدواناً وبغيا..

ضحك "عنتر" مُستهزئاً، ثم مال على أُذنه، وهمس له، مُمعناً في استفزازه بصفاقة:

ـ زد على ذلك أن حواراتك مع الطلبة في السياسة داخل المُحاضرة قد تقضي عليك تماماً وتنقلك إلى عالم صغير مُظلم له قضبان، لن يُمكنك تجاوزها أبداً...

واعتدل في وقفته، مُنسقاً هندامه، وقال له كأنه يُفاكهه:

ـ لعلمك لدي بعض من حواراتك المُمتعة مع طلبتك مُسجلة.. لكن أعتقد أن إشكاليتك الثانية ستكفي..

وانفجر مُقهقهاً، ثم رمقه باستخفاف مُفاجئ، وهو يبتعد عنه، هازاً كتفه ورأسه، ويقول:

ـ مسكين.. وُلد في الزمن الخطأ..

رمقه "ماجد" بإحساس مُريع بالتهديد، وهو يركب سيارته الفخمة خارج باب الجامعة، ومشاعر سلبية عويصة تعبث بكيانه.. مشاعر هادرة بالحنق، والبُغض، والقهر، الظلم، والضياع، وقلة الحيلة، الصِغر، والهوان.. وما زاد إلا أن تمتم قائلاً بجوامع مشاعره:

ـ حسبي الله ونِعم الوكيل..

راح يُفكر فيما ألقاه عليه هذا الوغد من حديث، يُحلله، ويخرج بالنتائج..

وكم كانت النتائج داعية إلى الأسى، والإحباط..

والانسحاب من الحياة رويداً رويداً !

***

(20)

سرحت "رشيدة" بعيداً عن الكتب المفتوحة على مكتبها، في سماء الأصيل من خلال نافذة حجرتها، المُطلة على فراغ عُمراني محدود، طافت مخيلتها ـ مع الطيور الهائمة ـ في حبيبها الذي لا تستطيع الوصول إليه.. كيف حاله الآن ؟.. ماذا سيظن

في غيابها ؟.. وكيف تخرج من هذه الورطة ؟... لا تستطيع أن تتصور حياتها مع شخص لا تستسيغه بالمرة، مع ذلك يتوجب عليها مُرغمة أن تتقبله هذا الأسبوع، وتتلاءم مع فكرة الزواج به !!.. إنه أمر مُعقد !.. لكنها عندما وصلت إلى هذه النقطة، نفضت رأسها، واستعادت خطتها التي باتت لها طوق نجاة... الإشكالية تكمن الآن في عدم معرفة "ماجد" بتطور الأحداث، وتعديلها لخطتها... لذلك كان لا بد أن تبحث عن وسيلة للاتصال به... وأثناء تكرارها لهذا السؤال نادتها والدتها.. بدا صوتها مُختلجاً، فأسرعت إليها، لتجدها بالمطبخ تُعاني دواراً شديداً، وضِيقاً في تنفسها، ثقلاً في جسدها، حرارة تجتاحه، وتوتر شديد في أعصابها وكيانها...

كانت الأُم تصيح وتستغيث.. أصابتها حالة أُمها بالفزع، راحت تسألها عما تشعر به، بينما تطوح الأم بيديها في الهواء وكأنها تُقاوم غرقاً ما، صارخة بكلمات غير مفهومة عن تعبها... جعلتها "رشيدة" تتكئ عليها حتى حجرة نومها حيث سريرها، وفتحت لها النافذة عن آخرها.. ثم هرعت تطلب والدها في محله، وتخبره بحالة والدتها المُريعة، فصعد بسرعة مُروعاً، بينما فوجئت "رشيدة" بمرافقة "عنتر بك" له على الباب.. خمنت أنه كان يُجالسه وقتما بلغته تعب الوالدة..

انتظر "عنتر" في الصالة، في حين هرع الأب والابنة إلى حجرة نوم الأُم.. بعد خمس دقائق اقترب "عنتر" من الحجرة، ونادى هاتفاً بما لاحظه من صعوبة الحالة، أن عليهم استدعاء طبيب في الحال.. فخرجت له "رشيدة" تؤكد على اقتراحه، وقصدت إلى الهاتف، اتصلت بأحد الأطباء، تطلبه لزيارة طارئة... بعد عشر دقائق وصل الطبيب، جاراً يسكن في نفس الحي، أجرى كشفه عليها، قرر أنه يجب نقلها حالاً إلى مستشفى لتلقي جلسة تنفس عاجلة، وإجراء علاج معين لن يتوفر إلا هناك.. تطوع "عنتر" بإسعافها في سيارته.. وخلال دقائق كانت "زينة" مستقرة في سيارة "عنتر" هي و"رشيدة" وأبيها الذي ترك محله تحت رعاية صبيانه العاملين فيه.. ما أن وصلت السيارة إلى المستشفى حتى طلبت "رشيدة" من الاستقبال نقالة لحالة طارئة.. نُقلت الأُم في أروقة المستشفى إلى القسم المخصص الذي نصح به

الطبيب.. وراح طبيب الاستقبال يُجرعها علاجاً يُداوي حالتها العسيرة.. بعد نصف ساعة هدئت الأُم، فأمر الطبيب بحجزها يومين للملاحظة.. لم يكن من مناص من إقامة "رشيدة" معها... ما أن استقرت الأُم في الحجرة، حتى استأذنهم "عنتر" في المغادرة لبعض الأعمال المهمة.. شكره الحاج "حسن" بحرارة على أذره، وأوعز إلى ابنته توصيله إلى خارج المستشفى بينما سيمكث هو مع زوجته قبل مُغادرته هو بعد قليل.. لم تجد "رشيدة" بُد من الشروع في تنفيذ تعليمات والدها... مشت معه في أروقة المستشفى، جنباً إلى جنب.. كان وَضعاً غير مرغوب فيه من ناحيتها، لكنها كانت مُضطرة، على الأقل مجاملةً له، بعد معاونته إياهم في أزمتهم المُفاجئة، ووقوفه بجانبهم حتى اطمئنانهم على الزوجة الأُم..

كان عليها أن تُصارحه بينما هما يبلغان نهاية المستشفى:

ـ أود أن أُعلن لك عن امتناني لموقفك النبيل..

بدا أسلوبه في غاية اللباقة:

ـ بل أنا المُمتن.. برغم أسفي لمُصاب والدتك، لكني شاكر للظروف التي تقربني.. منكِ..

صمتت هُنيهة، ثم حتى لا تجعله يظن أنه يستحوذ عليها، قالت مُنوهة:

ـ ما زلت أُفكر..

بدت علامات الاستفهام على وجهه للحظة، ثم انفرج ضاحكاً مُومِاً برأسه، وهو يقول:

ـ أها.. أرجو أن يكون تفكيرك في صالحي..

ردت بحيادية:

ـ بالتأكيد.. أياً كانت نتيجة تفكيري فالنصيب الأصلح هو الذي يسوقه الله للعباد..

بجدية مشوبة بنبرة متلطفة:

ـ إنني مستعد للمشقة وبذل النفيس من أجل طموحي.. وغالباً ما أظفر به..

ظهر العجب على وجهها.. وبوَرِع قالت بإصرار:

ـ مهما بلغ العبد بأسبابه فهو خاضع للقدر..

لم تنتبه لشبح الابتسامة التي انعكست على فمه، وهو يقول:

ـ يبدو أنكِ متدينة مثل أبيكِ..

نظرت له بعجب، لكنها لم ترغب في المُزايدة.. بعد سويعات قال لها:

ـ هل يفرق معكِ معرفة كَون "ماجد" احتال عليَّ حقاً ؟..

عصبتها السيرة، فصاحت بهدوء:

ـ "عنتر بك".. لا داعي للحديث في هذا الموضوع..

ـ بل مهم أن تعرفي ما لدي.. فهو لصالحك، وليس لصالحي..

ـ ماذا لديك تملكه عليه بالله عليك ؟..

ـ لقد عزل جزء من المحصول ليبيعه لصالحه بعيداً عن نسبتنا المتفق عليها..

هزت رأسها نفياً بتصميم:

ـ كلا، لا أظن أنه فَعل ذلك..

هز كتفيه، وقال في لا مُبالاة:

ـ لا تصدقي.. لقد واجهته، لكنه أنكر، غير أن عدد من الفلاحين العاملين في الأرض شهدوا عليه.. لقد سرحته لأني لا أحب الخيانة والكذب والخداع.. بالطبع سيحفظ ماء وجهه إذا لم يعترف لكِ، ولم يُصارحكِ.. بالتأكيد هو يهمه ألا يكون أمامك مُحتالاً سارقاً..

بعتاب واستثارة لطويته:

ـ بالله عليكِ.. لماذا يُعرض نفسه لأمرٍ مشين مثل ذلك.. إنني أعرفه نزيهاً صاحب مبادئ..

لطف من نبرته، وخفف من تحامله، ثم مُذبذِباً لقناعتها:

ـ معذور يا عزيزتي.. لقد كان يتمنى أن يظفر بكِ.. وأنتِ تُدركين فاقته وكساده أكثر مني.. لقد أراد أن يختصر الوقت، وينتشلك من فيض العرسان المجذوبين بكمالك وجمالك.. ألا تجدين هذا وازعاً كافياً له ؟..

نظرت إليه بعُمق وتأثر، وهي تُحاول استيعاب كلامه..

لما لم يجد منها رداً، تابع أحبولته، وأردف قائلاً:

ـ اسألي نفسك يا "رشيدة".. لماذا يقبل عليكِ شخص في مثل فقره، يُدرك غنى والدك؛ للزواج منكِ ؟..

باستنكار صاحت فيه:

ـ ماذا تقول ؟..

ضعفت نبرته قليلاً، غير أنه أراد طرق الحديد ساخناً، حتى يُطوعه في يديه:

ـ لا تنزعجي.. بالتأكيد أن جمالك وكمالك يستقطبان كل الرجال.. لكن لماذا يُقدم هو على فِعل ذلك.. أليس من الأنسب أن يختار فتاة تُكافئه مادياً ؟.. أي شاب عاقل لن يُفكر في أن يُعَّرِض نفسه للحرج أمام فتاة غنية.. حتى لو نجح في الزواج منها، كيف سيمنحها أسلوب المعيشة التي كانت تحياها في بيت أبيها ؟.. لا بد أنه كانت لديه أغراض جشعة.. أغراض يرفع بها ذاته، لتعيشي معه في مستواكِ الذي سيغنمه من ميراث أبيكِ..

نجح "عنتر" في التأثير عليها أو تشويشها، أصابها إحباط غامر، لدرجة أنها استندت في أسى وجزع على جدار الرواق الأخير للمستشفى قبل الخروج منها، لا تقدر قدميها على حملها..

في حين واصل برفق، قائلاً:

ـ سامحيني يا "رشيدة".. أُدرك أن هذا يصدمك، لكنها الحقيقة.. إنني قادر على ثبر هذه النفوس الدنيئة التي يُمكنها أن تخدع فتاة مثلك.. مع ذلك فإن لدي دلائل على مزاعمي.. لقد حدثني عن رغبته في الظفر بخطوبتك.. ثم حدثني أنه يتمنى أن يكسبك في أسرع وقت حتى لا يخسر فتاة في مميزاتك.. وبالطبع التي منها ميراثك من أبيكِ.. أليس كل ما ذكرته دليلاً على حقارة معدنه ؟..

دمعت عين "رشيدة"، بدت في حالة يُرثى لها.. لم يشأ أن يزِد عليها، حتى لا تنهار عصبياً.. قال لها ناصحاً:

ـ لا أريدك أن تتأثري بما قلته لكِ.. أريدك فقط أن تفكري بحرية، مُستعينة بالحقائق التي نشرتها على مسمعك، حتى تخرجي بنتيجة صائبة ومُوفقة تنجي بها من محاولات استغلالك..

مضى يُهدئها بأسلوب عاطفي وفكاهي، حتى خرجوا كُلياً من المستشفى قريباً من سيارته، فركبها، وطيب خاطرها، مُتمنياً الشفاء لوالدتها، واعداً إياها بأنه سيمر غداً للاطمئنان عليها.. ثم انطلق بسيارته..

رجعت إلى غرفة والدتها.. فنظر لها الأب بمكر، ونكز الوالدة التي ابتسمت رغماً عنها، وقال مستبشراً:

ـ هيا يا "زينة" شدي حيلك.. حتى تفرحي بـ"رشيدة" قريباً..

بعد دقائق وقف مُزمعاً الذهاب لمحل عمله، مُوصياً الفتاة على أمها، وسأل زوجته عما ترغب به، ليُلبيه لها عندما يحضر في الزيارة بالغد... ولم يلبث إلا أن غادر.. في حين بقيت "رشيدة" بجانب والدتها، باتت ليلتها معها على السرير المُرافق..

تُعاني سُهاداً مريراً، لم تستطع معه وقف عقلها عن التفكير لحظة واحدة..

ظل يُعذبها، حتى الصباح..

***

(21)

انتابتها حالة من الشجن والبُكاء، كانت تكتم صوتها به حتى لا تُؤرق والدتها المُعتلة في نومها.. شعرت بسواد الدنيا في عينيها.. تجمعت كل مصالحها واهتماماتها في موقف حساب حاشد..

رسالة "الماجستير" المتوقفة، التي تحتاج لمراجع علمية واتصالات بعلماء لا يتوفرون بركودها في هذه المدينة، وبناءً على ذلك، فمستقبلها العلمي متوقف وعاطل لأجل غير مُسمى..

والدها الذي تغيرت سياسته معها، وتبدلت لهجته من الصداقة إلى الأبوة القاسية..

والدتها المريضة، الطيبة، التي تُهون عليها مصاعب الحياة ببساطتها المتمازجة مع تكلفها.. إنها تُثير إعجابها وحيرتها.. ماذا لو فقدتها ؟.. ماذا لو أقعدها المرض وعذبها طويلاً ؟..

حبيبها.. وآهٍ لحبيبها.. وهو مركزها من بين كل المُهمين.. هل صحيح ما ذكره عنه "عنتر" ؟.. سارق ومُحتال !، دعته رغبته الجشعة في نيلها.. إذن فقد كانت تعيش مع حقيقة زائفة ؟.. مع مشاعر وهمية ؟.. لقد كانت هذه المشاعر هي التي دفقت في كيانها الطاقة السحرية التي جعلتها تتحمل كثير من المصاعب والمواقف العسيرة.. وبها هي مستعدة لمُجابهة العالم كله حتى آخر العُمر... هل عليها أن تُسلم بما ألقاه عليها "عنتر" ؟.. هل هذه شيمة العاقلة المتعلمة الناضجة ؟.. أن تُصدق كالبلهاء كل ما يُنثر على أذنيها !

فجأة.. طرأت على ذهنها فكرة.. تنطلق من مبدأ احتياجها للتأكد من هذه المزاعم.. برغم أنها واثقة في حبيبها، إلا أن لهذا الرجل تأثير عجيب.. إنها لا تخشى على مالها، كل ما تخشاه هو على قلبها..

كانت حائرة في طريقة للاتصال بحبيبها، لمُشاركته بالخطوب الجديدة التي حلت في طريقهما المُتوحد..

خططت للفكرة، شغفت لتحقيقها مع أول بشائر الصباح.. أراحتها كثيراً من التفكير وهدر الأعصاب..

مع أول انفلاق للصبح، خرجت من الغرفة تبحث عن هاتف، ولما عثرت عليه اتصلت بكلية الزراعة.. سألت عن "ماجد".. أجابوها بأنه لم يحضر لا الأمس ولا اليوم !..

أثار الأمر دهشتها وحيرتها.. شعرت بخيبة مريرة، وهي عائدة إلى غرفة والدتها بالمستشفى.. أيقظتها، اطمأنت عليها، وهيئتها من أجل الطواف الصباحي للأطباء على المرضى..

بعد قليل زارهم الطبيب.. في صمت الجميع، كشف عليها كشفه الكامل، ولما انتهى.. اقتربت "رشيدة" منه، سألته عن نتيجة كشفه، فقال لها:

ـ حالتها إلى تحسن..

ـ ما هو التشخيص لحالتها يا دكتور ؟..

ـ إنها تُعاني من تعب في جهازها التنفسي والقلب.. لكنها حالة عارضة بسبب الجو الذي تعيش فيه... أين تسكنون ؟..

ـ نسكن بعمارة في الدور الثاني.. في الحقيقة هي بعيدة عن الشمس، الهواء رطب، وهي لا تحب الخروج..

ـ تماماً.. أنتِ تذكرين كل العوامل التي أثرت عليها، ووصلت بها إلى هذه الحالة.. إنها تحتاج لجوٍ مفتوح، هواء نقي، وشمس تقوي من عظامها.. لأن هذه السن عند النساء تضعف فيها عظامهن، ويحتجن لجرعات من الشمس والكلسيوم من طعامهن.. إلى تناول أكل صحي طازج... حاولوا أن تُوفروا لها كل تلك الأسباب بالضرورة، حتى لا تتفاقم حالتها أكثر من الآن..

ـ سأُحاول، سأبذل قُصارى جُهدي لذلك.. متى تكون مستعدة للخروج يا دكتور ؟..

فكر قليلاً وهو يقيم الحالة أمامه بعينيه، مع ما درسه عنها، ثم قال:

ـ ربما غداً بإذن الله، سيتم الكشف عليها، وعلى أثر تحسنها سيُكتب لها الخروج.. المهم أن تُحافظ على تعاطيها جرعات أدويتها كاملة وبانتظام..

قالها وهو يهم بالانصراف لإكمال طوافه على مرضى العنبر الآخرين...

أقبلت "رشيدة" على والدتها بعد توديع طاقم الكشف، شعرت بالاطمئنان عليها، لكن هذه الأخيرة أحست بكدرٍ وحزن يشع من وجه ابنتها.. قالت لها بوهن:

ـ يا ابنتي.. سامحيني إذ أرهقتك معي كل الإرهاق..

اقتربت "رشيدة" منها، مالت عليها في حنان، قبلت جبينها في حب، وقالت في ود وإعزاز بالغ:

ـ يا أمي الحبيبة لا تعبئي بتعبي، المهم شفاكِ يا سيدة الكل..

قبلت الأم وجنتها، وقالت:

ـ رزقكِ الله يا ابنتي الزوج الصالح الذي يُسعدك حتى آخر العُمر..

تراجعت "رشيدة" للوراء، ونعمت عينيها في وجه أمها بشرود..

سألتها الأم في تحنان:

ـ ما بكِ يا حبيبتي ؟..

هزت الفتاة رأسها نفياً، وهي تقول:

ـ لا شيء يا أماه..

بنظرة عميقة ذات معاني:

ـ يا عزيزتي.. إنني أُم.. أعرف تماماً ما يُضايقك.. أدعو الله العظيم أن يُحقق لكِ طموحاتك، يُفرج عنكِ الهم، ويكشف عنكِ الغم..

منحتها "رشيدة" العلاج، قامت بكل احتياجاتها، وأخيراً أحكمت عليها غطاء السرير، حتى ترتاح.. وأوعزت إليها قائلة:

ـ هناك أشياء نحتاجها من المنزل للمبيت هنا الليلة، ولا يُمكن الانتظار عليها حتى يُحضرها والدي في وقت الزيارة.. سأضطر لتركك ساعة بين ذهابي وإيابي لإحضارها.. موافقة ؟

أذنت لها الأُم داعية الله لها أن يُسدد خطاها، ويجعل في كل خطوة لها السلامة..

قبلتها، وخرجت وبرأسها فكرة تلح عليها بإصرار.. الفرصة سانحة لها الآن للخروج بدون قيد أو مراقبة..

كان عليها أن تعمل سريعاً لملاقاة "ماجد".. لم يكن معها سيارتها.. هذا جيد.. استقلتها سيارة أجرة إلى عنوان منزل "ماجد"، الذي كانت تحفظه، ولم تُفكر في زيارته قبل الآن..

بعد عشر دقائق كانت قد وصلت، ارتقت حتى الطابق الثامن لمبنى من هذه العمائر الجديدة.. إنه السطح.. حيث يسكن.. طرقت الباب بسرعة عدة طرقات.. لم يستجب في البدء، لكنها سمعت حركة تقترب، وإذا به يفتح ليظهر من وراء الباب بذقن كبيرة، وعين مُرهقة أو نائمة، لكنها تجحظ ما أن تقع عليها، وينتفض جسمه كله، وهو يهتف باسمها مُتلعثماً بحرارة مُرتبكا:

ـ "رشيدة".. يا إلاهي.. أنتِ آخر شخص أتوقعه ليكون أمامي الآن.. أهلاً بكِ.. تفضلي.. لا.. انتظري سأُغير ملابسي حالاً، وأخرج إليكِ..

استهمته بإلحاح:

ـ أرجوك بسرعة.. للأهمية يجب أن نتحدث معاً.. ووقتي محدود للغاية..

أومئ لها، ودخل كالبرق، فيما اتجهت هي إلى السور، تطلع منه على كثير من معالم الفيوم، لمحت فرع النيل من بعيد.. شعرت بالحنين إليه، وتاهت مع جماله من هذا الموضع...

***

(22)

ـ محظوظ أنا بسكني هنا أمام هذا المنظر البديع..

استدارت "رشيدة" على أعقابها، ما أن نطق بهذه العبارة، بعد ثلاث دقائق من انسحابه لتغيير ملابسه، والتي بدا بها الآن في غاية الأناقة والوسامة.. وقف أمامها مُبتسماً، وهو يسألها:

ـ هل تأخرت ؟..

ـ كلا.. ولكن علينا أن نتحدث بشكل ضروري..

تجهم وجهه بتجهم وجهها، وقال باهتمام شديد:

ـ إني طواق لذلك أكثر منكِ.. أخبريني كيف تحررتِ من قبضة والدك عليكِ ؟..

ثم ابتسم، وقال مُداعباً:

ـ هل هربتِ ؟..

لم تُبالي بمزحته، لكنها سألته مُتعجبة:

ـ كيف عرفت أن والدي حرّج عليَّ الخروج ؟..

استعاد ذكرى حديث "عنتر" معه في ممشى الجامعة، وبنبرة حزينة مقهورة:

ـ إنه "عنتر".. وتحدث معي حديثاً مُطولاً.. مُنتهاه أنني غير صالح لكِ، والأفضل أن ابتعد عن طريقه، وألا أقربك، وأن والدك عزلك في المنزل حتى يتزوجك هو..

هتفت في استنكار:

ـ ما هذا الهراء ؟..

هز كتفيه:

ـ هذا ما حدث حقاً.. لقد كنت في حالة يُرثى لها منذ يومين.. لا تعلمين لأي درجة استفقت من يأسي وإحباطي بمجرد رؤيتك..

كانت "رشيدة" ما زالت شاردة، فسألها:

ـ ما بكِ ؟..

ـ هذا الرجل خطير.. إنه يحاول أن يُفرق بيننا..

ـ ماذا تقصدين ؟

بكلمات سريعة ومُختصرة، لكنها تحمل الخلاصة وتُبرز المواضع التي تحتاج إلى النقاش والرد، حكت له من أول حوار أبيها معها، مروراً بتعب والدتها، ومعاونته لهم، حتى الحوار الذي دار بينها وبين "عنتر" في أروقة المستشفى، ثم حاجتها إلى مُقابلته، واستغلالها لفرصة عدم مراقبتها، ومن ثَم حضورها إلى مسكنه..

سرحت عين "ماجد" بعيداً، مُفكراً بعُمق، لما انتهت "رشيدة"، تحول إليها، ناظراً في عينيها بإمعان، وسألها بشبه همس وببطء قائلاً بأسلوب عتاب:

ـ أتصدقين ما شوهني به الوغد ؟..

بنبرة مُستغيثة مُستنكرة:

ـ أبداً، لم أُصدق.. لكنه حاول التأثير عليَّ.. فلجأت إليك لتنقذني من عبثه بعقلي..

ابتعد عنها، وبثقة وكبرياء:

ـ كل ما قاله كذب وافتراء عليَّ يا "رشيدة"..

لاحقته:

ـ لا أحتاج لتصريحك هذا.. إنني متأكدة أن شخص في مثل مبادئك وأخلاقك لا يُمكن أن يفعل ذلك أبداً..

اقترب منها فجأة بحسم، وقال بكبرياء:

ـ لتعلمي أني لم أخنكِ بالغيب، فتعالي معي..

نزلا سوياً، وركبا سيارة أجرة، انطلقت في طريق الأرض المملوكة لـ"عنتر"، التي كان يُديرها "ماجد".. بهمس سألته في السيارة:

ـ إلى أين ؟..

بهمس مُتبادل:

ـ إلى الأرض التي كنت أُشرف عليها..

ـ سأتأخر هكذا ؟..

ـ اطمئني.. سأحرص على وقتك.. لكنني أريد أن أُثبت لكِ نزاهتي..

ـ لا داعي يا "ماجد".. إنني واثقة بك..

بإصرار، ثم بمشاعر فياضة:

ـ هذا يهمني أنا.. يجب أن تعلمي أنني ما طمعت في مالك قط.. كل ما حلمت به الزواج بكِ.. ميزاتك في نظري هي شخصيتك وأخلاقك وحجابك وجمالك.. لو وافق والدك على زواجنا فإني مستعد أن أتزوجك لتعيشي معي كما نريد بما أملكه أنا.. إنني أُجيد فهم شخصيتك، وأُقدرها لأبعد الحدود، أعرف أحلامك، وأعي بساطتك، وأُقدر تمازجها مع عقليتك العلمية.. لو تعلمين قدر الحب الذي أُكنه لكِ، لكنه لن يُنافس حبي لكرامتي ولاحترام ذاتي..

نظرت إليه "رشيدة" بعُمق حاستها الخارقة.. لمست هذا الصدق الممتزج بنبرته، المُنبعث لا بد من أعماق نقية..

حفز "ماجد" سائق سيارة الأُجرة على الإسراع، فيما عاد فقال لها مُعترضاً، وهو يضرب بقبضته في الهواء:

ـ لم أكن أتصور أن يحل كالشيطان ليُفرق بيني وبينك..

ـ إنه شيطان فعلاً.. الأدهى أنه يكسب صف والدي في صالحه.. لا أدري كيف أخرج من سيطرته، ولا أن أُحرر والدي من قناعته به ؟!..

فعقب عليها بنبرة حزينة:

ـ نحن واقعان بين حجري رحى.. يطحنوننا، كلٌ يفعل بنا ذلك على حِدة..

هدأت النبرة الانفعالية رويداً مع الطريق، وريثما يصلون شملهم حديث يهتم بحالتهم الإنسانية والوجدانية والقلبية...

***

(23)

في غضون ربع ساعة وصلا إلى المكان، فاستعاد "ماجد" نشاطه، غادر السيارة تتبعه "رشيدة"، مُلقياً ملاحظة البقاء للسائق حتى يعودا إليه..

في خطوات سريعة متعجلة واثقة، اتجه إلى دار تتسم بالفقر والبساطة، قريبة من أرض "عنتر بك"، طرق الباب، فخرجت له امرأة ريفية، عند قدميها عدة أطفال يتعلقون بملابسها، رحبت به بحفاوة، وألحت عليه للدخول، لكنه اعتذر منها وسألها عن "عواد"، أخبرته أنه ليس موجوداً، فسألها عن مكان وجوده ؟، فاقترحت أنه قد يكون في المسجد استعداداً لصلاة الظُهر.. شكرها، وغير وِجهته... فيما يحث خُطاه، وهي بجانبه تحاول مجاراته، سألته:

ـ مَن هو "عواد" هذا ؟

ـ إنه شخص نقي الفِطرة.. كان يعمل معي ضمن العُمال الذين أُشرف عليهم في أرض "عنتر".. هو الوحيد الذي سيكشف لكِ زيف قصة "عنتر" المُدلسة..

خلال دقيقتين وصلا إلى المسجد القريب، انتظرته بالخارج فيما أطل هو برأسه مُستطلعاً مَن بداخل المسجد، وما أن فعل، حتى نادى بهمس مُهذب:

ـ "عواد".. "عواد".. السلام عليكم.. هل لي بلحظة من فضلك..

لمحته "رشيدة" استبشاره بطَلة "ماجد"، وإقباله عليه بحفاوة.. يتبادلان التحية والسلامات، ثم يعتدل "ماجد"، ويقول له في جدية:

ـ أحتاجك في شهادة حق يا "عواد"، والآنسة "رشيدة" تريد أن تسمعها منك..

لم يكن الرجل مُنتبهاً لوجودها، فارتبك، وخرج من المسجد، مُرحباً بها في احترام، يُبالغ في حفاوته بإحراج، ويُعلن لهم بخضوع:

ـ أنا تحت أمركم يا باشمهندس، وتحت أمر الست هانم..

فسأله "ماجد":

ـ ما الذي تعرفه عن مسألة حادثة سرقة المحصول ؟

بعقله الحاذق فَهم "عواد" بأنه يُومئ لـ "رشيدة"، فقال مستعطفاً:

ـ لقد أخبرت الباشمهندس بالمسألة يا ست هانم.. ولكن أمانة عليكم ألا تُذيعوها، وإلا تعرضت للأذى من "عنتر بك" أو من المؤذيين "مدكور" و"عكاشة"..

طمأنه "ماجد" بنبرة لُطف، وهو يربت على كتفه:

ـ لا تخشى شيئاً يا "عواد"، لن تكون طرفاً في الأمر.. اسرد المسألة الآن..

ببساطته الظريفة، بانت على ملامح وجهه أمارات التفكير، ثم بلهجته قال مُسترسلاً:

ـ والله الشهادة لله.. شهادة حق يا ست هانم.. قبل أن يقوم "عنتر بك" باتهام الباشمهندس.. الواد "مدكور" ومعه "عكاشة"، وهُم اثنين مؤذيين لا يعرفون الله.. لما اشتدت الزرعة واخضرت وعليت، جئنا كي نحصده، لما حصدناه وعبئناه في جوالات، الباشمهندس عَيَّنَ عليها حارس، الواد "صميدة"، لكن الاثنين المؤذيين قدروا يرشوه.. وأنا طقست، وعرفت من الواد "صميدة" نفسه كل المؤامرة.. ما حصل يا ست هانم أنهم رشوه وسرقوا عدة أجولة من عشرات الأجولة المملوءة بالحصاد.. وأخفوها في دارهم.. أنا كنت مسئول عَد الجوالات، عينني الباشمهندس بهذه الوظيفة، ولم يكن كثيرين ينتبهون لهذا العمل، لأني كنت أعدها عند التجميع، وغالباً لأنهم يكونون مشغولين بالحصاد والتحميل... في اليوم التالي عددتهم بشكل دوري، فاكتشفت نقص خمس جوالات، فصممت على معرفة الحقيقة، وكلمت الواد "صميدة" فأنكر أنه يعرف شيئاً، لكنني ضغطت عليه، وهددته بأن أُبلغ "عنتر بك" إذا لم يعترف بالحقيقة، خاف الواد، توسلني ألا أُدخله طرفاً في الموضوع إذا اعترف لي.. فوعدته بذلك.. قَص عليَّ الحقيقة.. وكان عليَّ أن أُبلغ الباشمهندس بما حصل ليتصرف، لكن لسُوء الحظ لم يكن موجوداً في هذا الوقت، وأردت أن أتعجل بتبليغ شخص مسئول حتى يتصرف قبل أن يتصرف اللصين في سرقتهما.. كنت أعلم أن "عنتر" بك موجود في هذا الوقت في (فيلته) القريبة.. فذهبت إليه حكيت له القصة، وكشفت له اللصين، فنظر لي وسرح كأنه يُفكر، وبعد دقيقتين وعدني بأنه سيتصرف، ولكن عليَّ ألا أُخبر أي شخص مهما كان عن هذا الأمر، حتى

لو كان الباشمهندس... ظننت أنه يُدبر للسارقين.. بعد يومين فوجئت باتهام البك للباشمهندس بالسرقة والاحتيال !.. هالني الأمر.. ولم ألبث حتى دعاني داعي للبك في فيلته، فذهبت.. قال لي أنه طقَّس عن السرقة التي أبلغته بها، وعرف أن الذي يتسيدها هو الباشمهندس.. فقلت له: لكن الباشمهندس ليس له دخل بذلك وأنني واثق فيه.. رد عليَّ بجفاوة، وهددني بكلام متواري، قال لي: (الأفضل لك أن تقطع علاقتك بالمسألة برمتها، حتى لا يتشرد أولادك من بعدك..)، لم أفهم في البداية، لكنني ما أن خرجت من عنده وقلبت كلامه في مخي حتى وضح لي كل شيء... علمت فيما بعد من "صميدة" أن البيك وَالس مع "مدكور" و"عكاشة"، ليقولوا أن الباشمهندس هو الذي خطط لهم ليستولوا على أجولة الحصاد، ويتقاسموا المال عندما يتم بيعها.. ولكني لا أشك أبداً، بل متأكد يا ست هانم أن الباشمهندس لا يُقدم على فعل ذلك.. إنه رجل شريف وطاهر، بل هو الذي حثني على الصلاة والأخلاق الحميدة.. لقد فكرت بمنطقية أن رجل مثل الباشمهندس لو احتاج للسرقة فلا يفعل مُقابل مائتين جنيهاً فقط.. خمس أجولة لا يُساوون أكثر من ستمائة جنيهاً... لم يكن أمامي إلا مُصارحة الباشمهندس بما حصل على ألا يذكرني طرفاً في هذه المكيدة حتى لا أتعرض للأذى من قبل البيك.. فقط..

عند هذه اللحظة ارتفع أذان الحق يُعلن أوان صلاة الظُهر..

خيم الصمت على ثلاثتهم مُطرقين، عاقدين سواعدهم على صدورهم..

بعد دقيقة، نكزت "رشيدة" "ماجد" كي يتعجل الذهاب، فما كان منه إلا أن اعتدل وربت على ظهر "عواد"، شاكراً له بشدة، ووعده بالحفاظ على وعده له، ثم ودعه، وذهب بجانب "رشيدة" التي سبقته في طريق سيارة الأُجرة..

في سيارة الأُجرة بكت "رشيدة"، التفت "ماجد" إليها في جزع، مال عليها، وسألها بنبرة مختلجة:

ـ ما بكِ يا عزيزتي.. لِمَ البكاء ؟.. أخبريني.. ألم أُثبت لكِ براءتي ؟..

من بين دموعها، وبصوت مكتوب بالبكاء:

ـ مهما أثبت لي يا "ماجد"، فلا طريقة تُثبت بها لأبي حقارة "عنتر"، ونزاهتك..

اعتدل "ماجد"، شرد ذهنه مُدركاً الحقيقة، ثم قال مُغمغماً:

ـ حقاً يا "رشيدة".. لا بد أن الوغد قد أقنع والدك بقصته المُزيفة.. أصبح هو الملاك، وأنا الشيطان..

ـ لا بد أن نفكر في حيلة لكشف "عنتر" أمام والدي..

فكر "ماجد" قليلاً، ثم هز رأسه، وقال بنبرة مُغامرة:

ـ ليس من طريقة غير أن أُقابل والدك وأُكلمه.. ما رأيك ؟..

هدأت "رشيدة" من بكائها الخافت، ظهر على وجهها التفكير، لكنه سُرعان ما اكتسى بالحيرة، وهي تقول:

ـ لا أدري.. لكن حاول..

اتفقا على حضوره لوالدها في محله بالساعة الخامسة لمحادثته..

وبأقرب مكان من مسكنها، هبطت من السيارة، وبسرعة ارتقت إليه، لملمت ما طالته يديها من متطلبات لأمها الراقدة في المستشفى، ونزلت بأقصى سرعتها، حيث ركبت سيارتها، وساقتها..

في غضون عشر دقائق كانت تعدو في أروقة المستشفى حتى بلغت والدتها، وقبل أن تفتح باب غرفتها، نظرت في ساعتها لتجدها الواحدة تماماً.. تأخرت حوالي ساعتين.. وبدقات قلب متسارعة فتحت الباب، ودخلت وهي تطل بعينها على السرير، لتجد أمها نائمة، فتغلق ورائها الباب، وتستند عليه بإرهاق وهي تتنفس الصعداء..

***

(24)

بالساعة الثانية والنصف ظُهراً تلقت "رشيدة" مكالمة، أعلمتها المُمرضة بها، فتبعتها لترد عليها من موضع الهاتف الخاص بالعنبر، كان والدها يسألها إن كانوا يطلبن حوائج معينة قبل حضوره وقت الزيارة، فأبلغته أنها حضرت ولملمت بعض الأشياء، وأطلت عليه في المحل، فلم تجده، فقفلت راجعة لأمها، كما أنها قادت سيارتها حتى

تكون معهم وقت الخروج في صباح الغد، فأقرها على فعلها، وأعلمها بقدومه مباشرةً..

عندما حضر وقت الزيارة، بالساعة الثالثة عصراً، اطمأن على زوجته، التي راق وجهها، دلالةً على التعافي.. سأل "رشيدة" عن تقرير الطبيب، فأخبرته بالتفاصيل.. فاستبشر، واستراح.. ونوه لها عن أن "عنتر"كان ينوي مُرافقته لولا بعض مشاغله ذات الأهمية القصوى، واطمأن منه على والدتها، كما مدح في "رشيدة" لبرها بها، مكوثها معها، وقيامها بخدمتها، برغم ما تتكبده من عناء في تحضيرها لبحث شهادتها..

أخذ الأب يتفوه ببضع كلمات ثناء على ابنته، مُحاولةً منه لتليين قلبها وعواطفها ناحيته..!

وما كان هذا إلا ليزيد من مخاوفها ويُوغل في انقباضها..

مرت ساعة الزيارة كما قُدر لها أن تمر.. ذهب الأب، بعدما خططا للغد إيذاناً بتوقيع الطبيب المُعالج على ورقة خروجها، على حد تقريره..

ارتاحت الأُم، ونامت بعد وقت الزيارة.. جلست الفتاة أمام النافذة وهي قلقة.. حاولت أن تُلهي ذهنها عن التفكير.. سرحت في الحديقة الخارجية للمستشفى، مع جمالها المُعتنى به.. يبدو الكون بديعاً بالأمل.. بالنظرة الإنسانية فحسب.. لا يكون للطبيعة معنى إلا بتقدير نظر الإنسان لها، حسب نفسيته ومُعتقده ومقياس أمله..

نظرت في ساعتها، إنها تقترب من الخامسة تماماً.. راحت تُمني نفسها بالأحلام السعيدة، والخيالات البهيجة.. مع حبيبها وزوجها "ماجد، في عشهما الصغير، الذي يحتوي مشاعرهما الزوجية الدفاقة، ومنه يبدءا اجتهادهما بمساعدة بعضهما نحو النجاح والرخاء.. أمضت ثُلثي الساعة في التأمل والشرود الحالم...

كانت الساعة السادسة إلا ربع عندما أتتها نفس المُمرضة تخبرها بوجود مُكالمة من أجلها.. انتابها اضطراب خفي، وذهبت بقلبٍ واجف.. وضعت السماعة على أذنها، وبدأت قائلة:

ـ السلام عليكم..

أتاها صوت أبيها هادراً عبر السماعة:

ـ لا سلام ولا كلام يا "رشيدة"..

هتفت مفزوعة:

ـ ماذا هنالك يا أبي ؟..

ـ أنتِ أيتها الفتاة.. هل كنتِ تعلمين بمجيء هذا الكذاب الأشر "ماجد" إليَّ ؟..

تلعثمت "رشيدة" واحتقن وجهها، لم تكن تدري بماذا ترد، غير أنه لم يكن من داعي للرد، إذ تابع الأب بصوت مُنفعل غاضب:

ـ لقد أتى بكل وقاحة ليتهم الرجل في نزاهته.. ليظفر بكِ.. يريد أن يتحايل عليَّ، ويرد جريمته على الرجل البريء.. لكنني طردته شر طردة.. هددته بأنني سأشكو لإدارة الجامعة كي تنقله إلى جامعة أُخرى.. لدي كل الأسباب المناسبة، ولدي كذلك الإمكانية القوية لتنفيذ تهديدي.. بل سأسعى إلى ذلك جاهداً..

ثم هدأت نبرته، مُغيراً من إستراتيجيته، والدموع تنهمر على وجنتيها في صمت، بعد تبدد كل أمالها دفعة واحدة:

ـ يا "رشيدة" هذا الشاب لن ينفعك، إنه خطير.. "عنتر" أخبرني عنه كثير من السفاهات والعبث.. يكفي أن لا جامعة تقبله للتدريس فيها، ولا يعلم أحد كيف حصل على الامتياز، ثم توظيفه في الجامعة.. راجعي نفسك يا ابنتي، وتعقلي بالحكمة، فعاقلة هي مَن تختار "عنتر" بنزاهته واجتهاده ومميزاته وغِناه.. صحيح أنه أكبر منكِ قليلاً، لكن الزوج كُلما كان أكبر كان أفضل في تسيير أسرة سعيدة.. فكري جيداً يا بنيتي.. ويجب أن تعلمي أنني اتفقت مبدئياً مع "عنتر" على عقد الخطبة الخميس القادم ما دُمنا اطمأننا على والدتك بفض الله، ثم خلال شهور نعقد قرانكما إن شاء الله.. أُبشركِ بأنه موافق على عملك في الجامعة، ومتابعة مسيرة "الماجستير" و"الدكتوراه" وما يتبعهم.. أظن أنه ليس هناك أفضل من ذلك.. زوج

مُحب، ويدعمك بكل ثروته.. ستكونين له الزوجة الأُولى في حياته.. لقد بلغتك بكل ما يعتمل في نفسي.. وعليكِ أن تهبينا كلمتك.. فقط..

سالت دموعها الغزيرة بشدة وهي تسمع كلماته الأخيرة، انشقت نفسها من القهر، وهي تُعبر بعينيها عن نظرة عتاب مريرة لا يراها.. لو كان أمامها للفحته بهما بمنتهى الحرج والخجل.. ولعله قصد مُكالمتها في الهاتف لهذا الغرض؛ حتى يحمي نفسه من نظراتها، ويؤتىَ القوة على دحرها..!

كانت في أعتى حالات حنقها منه.. ردت عليه بكلمة عتاب كمدة:

ـ لعنست وما زوجتني بقسوتك يا أبي..

سكت الأب، ثم قال مُقاوماً:

ـ الأب يقسو لصالح ولده..

بتسرع:

ـ الولد ينبذ والده بخطئه..

ـ سأتجاوز جُرأتك يا ابنتي.. لكن الأيام بيننا.. غداً تعرفين مَن المُخطئ..

قالها بتحدٍ، وأغلق السماعة في سخط وامتهان..

أحست بانهيار يجتاح كيانها، فانهارت على أقرب مقعد، وما زالت السماعة في يدها، نظرت حولها بعين غائمة، وكأنها تجمدت في مكانها، لا يُمكنها حتى الإيماء للمُمرضات أن يتفقدنها..

كل شيء جميل أحبته يختفي.. حبيبها.. وأبيها.. حتى هي نفسها.. برونقها، بشخصيتها، بجمالها، بروحها، بطموحها.. يختفي.. ليحل محله بقُبحها، ورُخصها، ضآلتها، رسوبها، بخوائها... حياة أُخرى تشبه الجحيم..

***

(25)

لم تمر عشر دقائق حتى تلقت اتصالاً جديداً.. لم تكن وصلت لغرفة أمها بعد.. كانت تسير في الرواق ببطء وكأن الأرض تميد بها... عادت مرة أُخرى للهاتف الوبيل مرة أُخرى، انتابتها رغبة بتحطيمه، لكنها تماسكت وهي ترفع السماعة إلى أُذنها.. انتظرت لتسمع صوت مُحدثها دون أن تتفوه بأي كلمة، وكأنها تخشى أن تصطدم بصوت أبيها مرة أُخرى أو طرف من ناحيته.. غير أن صوتاً مألوفاً هتف:

ـ "رشيدة".. مرحباً.. هل أنتِ معي ؟..

هتفت بكل كيانها:

ـ "ماجد"..

ـ ها أنتِ ذا يا حبيبتي..

بصوتٍ مكلوم:

ـ ما كنت أتصور أنه يُمكنني مُحادثتك ثانيةً..

بكل الأسى ردت:

ـ ولا أنا يا "ماجد".. إنني أضيع هنا.. لدي رغبة في الهرب..

بشجن بالغ:

ـ هل علمتِ بما حصل بيني وبين والدك ؟..

ـ علمت يا "ماجد".. أشعر أنني في أجواء كابوس مُريع، أتمنى القفز منه..

ـ كيف عرفتي بهذه السرعة ؟..

ـ لقد أغلق معي منذ قليل.. كيف توصلت إليّ ؟..

ـ من اسم المستشفى الذي ذكرتِه لي بلقائنا الأخير، وببعض البحث.. ماذا قال لكِ ؟..

استعادت وقع كلمات أبيها النارية، وقالت بنبرةٍ مختلجة:

ـ أسوأ مُكالمة تلقيتها في حياتي.. المكالمة التي تُوشك أن تُودي بي، أو تفصل بين حياتي السابقة وحياتي المُرة المُقبلة..

خَفتَ صوته في أسف:

ـ فهمت..

ثم أردف في إحباط:

ـ لم تفلح خطتنا يا "رشيدة"..

وبإحساس عارم بالمهانة والشجن:

ـ لقد دفعني أمام الناس خارج المحل، وارتفع صوته بالسِباب، كنت أتمنى ألو تنشق الأرض وتبتلعني.. برغم أنني لم أتصادم معه إطلاقاً، لقد جئت بكل الاحترام، وبكل البِشر صافحته.. تطرقت له إلى مستقبلك، قلت له لا يهمني زواجي من "رشيدة"، بل يهمني أن تتزوج من شخص صالح.. لمحت له عن مكيدة "عنتر"، لكن يبدو أنه كان مستعداً لي كفاية..

احتدت نبرته انفعالاً محزوناً، ثم بإحباط مُريع:

ـ شحذه الوغد ضدي، وكأنه تحسب لهذه الخطوة.. لقد تلوثت صورتي بشكل غير مسبوق يا "رشيدة"، لا أظنني سأمكث هنا بعد الآن.. لقد توعدني بالنقل من الكلية.. سأسبقه به.. لا تتخيلي مدى سوء حالتي.. سأُسافر..

أجهشت "رشيدة" بالأنين، كأنها تطلب منه الرِفق بها، ومؤازرتها.. صرخت به مكلومة:

ـ تُسافر ؟.. تُسافر وتتركني هنا ؟.. أين حبك ؟.. هل صدقوا في مزاعمهم ضدك ؟..

انفعل قائلاً:

ـ أتركك ؟!.. ماذا أفعل بعد الآن ؟.. لعله أنبأكِ بما أنبأني بي.. أنتِ على شفى أسوأ اقتران يا حبيبتي.. ماذا سأفعل بعد دخولك بيت رجل آخر ؟!.. هل ترين أن وَضعي يتحمل المكوث هنا بجانبك، وأنتِ في عصمة رجل آخر ؟.. ألا تُدركين ما سيفعل بي ذلك من عذاب مع حبي الآسر لكِ ؟..

قال جُملته الأخيرة وتفجر صوته بالنحيب والشجن.. انعدم الكلام، ولم تتردد خلال السماعتين إلا لغة النشيج والأنفاس الحارة المُتلاحقة..

تبادلا المواساة والعبرات عبر الأسلاك.. قالت له بين دموع ترثي ماضيها:

ـ لقد فقدت أبي.. وسأفقدك الآن، ولاحقاً سأفقد نفسي..

ـ يبدو أن هذا هو واقع عصرنا يا "رشيدة".. لم نكن نعيه، لقد صدقكِ والدك..

ـ كلا يا "ماجد".. لو كنا يتامى كنا صنعنا عهدنا وحدنا، بدون عبث الغابرين أو اللاحقين بعصرنا..

ـ هذا هو حال الدنيا.. استقواء لجيلٍ على جيل.. صراع وانفصال، لا اتفاق ومُشاركة..

بحزن مرير:

ـ لقد اكتشفت ضعفي البليغ أمام شخصية والدي الجديدة.. لا يُمكنني التعاطي معه كما كنت أفعل أيام الانسجام، الذي كان بيننا، وتبدد الآن كبخار القدِر المُتقد..

عقب بنبرة رثاء:

ـ عالم الغابة ليس فيه قُربة، ولا رحمة.. التوحش والتأسد وكسر القيم والتغول، تحولات من أقصر الطُرق إذا أردتِ البقاء..

ـ لكن هذه ليست مبادئنا ولا قيمنا.. أنا وأنت بالأخص..

ـ لذلك إما أن نخضع ونفترق ولنا الجنة، وإما ننتظر فرج الله المُستتِر..

بكل إحباط واكتئاب:

ـ إذن فما من سبيل الآن ؟..

بأسف مأزوم:

ـ كلا.. حتى يأتي الله بأمره.. فقد أخذنا بكل الأسباب، وما من حيلة لدينا بعد الآن سوى الإيمان..

أجهشت بالبكاء مرة أُخرى، لكن هذه المرة باستسلام، وبخضوع وإيمان تمتمت:

ـ ونِعم بالله... يبقى السؤال إلى متى يُمكننا الاحتمال ؟..

كرر سؤالها بنبرة يائسة آيلة للموت:

ـ بلى.. حتى متى يُمكننا الاحتمال ؟..

ثم استطرد ببطء، كأنما يؤرخ لمكالمته معها، ويُوصيها:

ـ سأُسافر يا"رشيدة" غداً الاثنين، ستظلين في قلبي وعقلي ووجداني.. أُشهد الله أنني أحببتك كما لم أُحب أحداً من قبل.. سأُسافر الساعة الرابعة.. لا تقطعي صلتك بالحياة، بل استمرِ.. وعندما يستبد بي الشوق سأرجع لأسترق إليكِ النظر من بعيد دون أن تدري، ثم أرجع..

ـ حقاً يا "ماجد" ؟.. ما أعذب صنيعك.. كم سيشحذني بحب الحياة..

ـ لا تدرين أن سماحك لي بذلك سيهبني أيضاً البهجة في حياتي، وإن كان سيُرافقها العذاب كتوأم مُتلازم..

أجهشت مرة أُخرى بالبكاء، وهي تقول:

ـ لا أُصدق أن هذا يحدث..

ـ تماسكي يا "رشيدة".. أرجوكِ..

وراح يُواسيها قليلاً، وإن كان في الحقيقة يُواسي نفسه..

أتت الممرضة تربت على ظهرها، مُتعاطفة معها بما فضحه لها وجهها الأحمر، المُفعم بالدموع، وتهمس لها بأن والدتها تسأل عليها..

بصعوبة ينتزع الحبيبان السماعة عن أذنيهما، إذ كان معنى هذا أنها النهاية المُحتمة لقصتهما إلى الأبد..

وقد كان لابد منها في لحظةٍ ما..

***

(26)

لبت "رشيدة" نداء والدتها، التي لاحظت ما فضحه وجهها، فسألتها في جزع:

ـ ما بكِ يا "رشيدة" ؟..

كانت الدموع تطفر رغماً عنها، بلا قدرة على إمساكها، بصوت مشجون مغصوص، قالت:

ـ مغلوبة.. مقهورة.. نفسيتي في الحضيض.. أرى الدنيا فقط باللون الأسود..

ظهر على الأُم التأثر، فاض بها الحنين، فخضبته بصوتها، وهي تناديها بعاطفة جياشة:

ـ تعالي يا "رشيدة".. تعالي في حضن أمك يا ابنتي.. بثي إليَّ شكواكِ يا حبيبتي..

فتحت لها أذرعها، فلم تجد الفتاة غير أن ترمي نفسها بين أحضان منبع عالمها المحبوب..

ربتت الأُم عليها بيد، وضمت عليها بالأُخرى.. وبدا منظراً مُؤثراً بين الأُم وابنتها...

ـ هل تعتقدين يا بنتي أنه غائبٌ عني ما يحدث بينك وبين أبيكِ ؟.. إنني في غاية الوعي لكل شيء.. لكنه والدك.. علمني ألا أتحدث في الأُمور الجدية.. طالما أنبني على التدخل في قراراته؛ حتى لم يبقى لي أي دور في حياتكم سوى الدور العادي الساذج..

ـ لا تقولي ذلك يا أمي.. أنتِ نِعم الأُم...

أومأت "زينة" رأسها بحزن، وتابعت:

ـ اسمعي مني يا ابنتي لتعرفي... انسجمت ردحاً من الزمن مع الحياة الجديدة، لكني اكتشفت أنني غير ملائمة لهذه الحياة.. إنني أنتمي إلى الطين، إلى الهواء الطلق، إلى مرتع الأرض الخضراء.. إلى النهر والماء، إلى الساقية التي تجرها الماشية.. إلى الماضي البهيج.. إلى النفوس البريئة... لطالما تُقت إلى العودة.. ولكن أين ؟.. أين المكان الذي يحتوي هذا الجو الذي عشته نصف عمري، أجمل وأول نصف عُمر عشته... كيف أبعد عنكم ؟.. كيف أكون أنانية إلى هذا الحد ؟!..

تراجعت "رشيدة" بظهرها إلى الوراء متخلية عن حضن أمها، نظرت لها بدهشة، وقد جفت دموعها، فيما تفاجئت بدموع أمها المُتسللة على وجنتيها.. فقالت وهي تُعبر بيديها:

ـ لا أُصدق أن هذا كلامك.. هذه المرة الأُولى التي تُصارحين بنتاً من بناتك عن عالمك الحقيقي..

ـ بلى يا ابنتي.. لأنني شعرت أنكِ تُعانين مثلما كنت أُعاني..

ـ وما الذي جعلكِ تصبرين على عناءك ؟..

ـ لقد كنت أشعر بالمسؤولية.. وما كان على امرأة أن تُعلن احتجاجها ما دام قد قرر زوجها لأسرته.. هذه شيمة الزوجة الصالحة في قريتنا يا ابنتي..

بلهجة حزينة منكسرة:

ـ لكن أبي لم ينتبه لتضحيتك..

ـ أراد الصلاح لنا جميعاً.. أنظري لقد أصبحتم في البيئة الجديدة مُتعلمات أحسن التعليم، مُتزوجات أفضل الزيجات..

ـ كان يُمكن أيضاً أن تتطور حياتنا في الريف، ولا أن نتبرأ منها ونتنزه عنها بهذه الطريقة القاسية..

ـ لا يُمكنك أن تعتبي على تصرف تلقائي أو تفكير معين صدر من جماعات..

سادهم التفكير وهلة، ثم أردفت الأُم مُزعزعة:

ـ حياتنا الجديدة ليست سيئة أيضاً، ولكنها بعيدة كل البُعد عن حياتنا القديمة.. كأننا فقدنا ذاكرتنا.. مع أن حياتنا القديمة كانت مُفعمة بالمميزات..

ابتسمت "رشيدة"، شعرت بالانسجام وإنثلاج الصدر:

ـ أتدرين يا أمي.. لقد عرفت الآن سر هذا الشوق السري الذي يريد أن يثب من أعماقي كل حين وآخر إلى عالم الريف بكل مظاهره الجميلة..

ضحكت الأُم، وراقها انشراح صدر ابنتها:

ـ إنكِ تشبهين أُمك كثيراً..

وضحكا مُبتسمين، ثم تعانقا في حب، كأنهما يتبادلا عناق تعارف المُقابلة الأُولى..

هونت هذه المحادثة اللطيفة من ابتلاء "رشيدة".. وَجمت قليلاً، فتسربت لها الأُم قائلة:

ـ أظن أنكِ مُدينة لي الآن بمصارحتي بما يعتمل في نفسك من كآبة وأسى..

تنهدت "رشيدة" تنهيدة حارة مكلومة، وقالت:

ـ إنني أُعاني بما تُعانين منه.. لا أدري هل أصبر وأُضحي مثلما ضحيتِ فأنال الرِضا أم أرفض وأتحدى فأنال السخط ؟!!..

نظرت الأُم إليها نظرة عميقة، وهمست:

ـ إنني أفهمك.. هل تعتقدين أن تضحيتي هو الاختيار الصائب ؟.. كلا، ولا التحدي هو الأصوب..

تحيرت في لُغز أُمها:

ـ ما هو العمل إذن ؟..

أفصحت "زينة" عن مُعتقدها، وكأنها تستقرئ درس حياتها:

ـ القُرب من الله.. الاعتماد عليه.. لقد كنت مستعدة للتضحية، لكني ما فكرت أنه يُمكنني اللجوء إلى الله أن يُوفق الأسرة فرداً فرداً للتعايش بسعادة في وضع يُناسب الجميع، في الوقت الذي تعطلت فيه حِيلي، وتوقف نفوذي.. لقد استسلمت بكل بساطة وأنا أحسب أن هذا هو التصرف الصائب الوحيد، حتى لا أُدمر الأسرة، برغبة قد تكون سخيفة مع الواقع..

بإعجاب مُنبهر:

ـ أماه كلامك يُدهشني ويُفجر فيَّ كوامن العجب..إنني أُعيد النظر إليكِ من جديد..

أردفت الأُم في إيمان:

ـ يا ابنتي لم يكن في يدي حيلة.. رضخت للواقع مُذعنة لرب الأسرة، ونسيت رب الأرض والسماوات العُلا.. لا يُؤتىَ المرء الحكمة عفواً... منذ شهر عاودني التفكير بأمور كثيرة في حياتي.. لقد حيرني التفكير في هذه المسألة طويلاً، خاصةً عندما كنت أشعر بالضيق من هذا الجو الخانق، وليس هناك غيره بعد سكننا بهذا الحي المُحاط بالعمائر، النائي عن كل مظاهر الريف.. كنت أشعر بتعب طفيف بين حين وآخر، لكنه أخذ يتزايد من الوقت والإهمال.. حتى وصلت إلى هذه المرحلة.. لم أطق، ولم أحتمل..

واستها "رشيدة"، عانقتها، وقالت برِقةٍ وعطف:

ـ أُشاطرك الإحساس.. لأنني كنت أحسه أيضاً.. أخرج، كل يوم تقريباً، منذ الثانوية قُرب النهر، أمشي بمُحاذاته حتى تلوح لي الأراضي الخضراء الفسيحة.. آه يا أمي.. لو كنتِ ألمحتِ لي بما أكننتِه في صدرك كل هذه السنين ما أُصبتِ بما أصابك... كنت حملتك في سيارتي منذ مبادئ سنين الكلية في نُزهات قصيرة لتعيشي سُويعات في عالمك الأصلي.. تحصلين على جرعتك وتعودي مُنتعشة..

انفجرا في الضحك بلا توقف.. وعندما هدءا، أردفت "رشيدة":

ـ بإذن الله يا أمي عندما نخرج، سأُخصص لكِ كل يوم نزهة إلى الجو الذي تُحبين..

ـ ياه يا ابنتي.. كل يوم !... هذا كثير.. يكفي كل أسبوع مرة..

ـ كلا، فلنجعلها كل يومين مرة.. سأكون سعيدة بذلك للغاية..

ثم هزت رأسها بتمعن، وقالت بامتنان وإخلاص:

ـ لا تتخيلين كيف خففتِ عني آلامي يا أمي.. حفظكِ الله لي..

ـ وحفظكِ يا ابنتي.. توكلي على الله، والجئي له، والزمي الدعاء.. أنا أيضاً سأفعل..

وشرد بصرها ناحية النافذة، وقالت بخشوع:

ـ لأنني معوزة بشدة لتدخل الله سبحانه وتعالى في أمور كثيرة بدأت تُنغص عليَّ حياتي بشدة..!

سندتها "رشيدة" للوضوء، وتوضأت هي أيضاً.. تركت أمها على فراشها تُصلي، وتدعو، فيما جلست هي على الأرض مُستندة على الجدار البعيد بمُحاذاة النافذة الواسعة، ترمق سماء الليل، تدعو الله حيناً، وتبكي حيناً، تتذكر قسوة أبيها، وفراق حبيبها، وزيجة ممجوجة تشبه حوتاً يُغيم عليها فيشفطها في ظلماته، إلى أجل غير مُسمى...!

فكرت.. قد يكون الدعاء سلواها في الأيام العصيبة القادمة.. حتى يستجيب الله بعد أن تنال حظها المحتوم من بلايا الدنيا.. هذا نصيب كل إنسان.. لا ينال آماله وأحلامه إلا بعد أن يحظى بالنكبات والأرزاء، حتى يُفرق بين المنحة وبين المحن..

خفف الدعاء من نفسها المكلومة، وجمع أشلائها الممزقة في أعماقها.. لكنها ظلت ساهرة حتى وقت متأخر من الليل، تطفر دمعاتها التي ترطب قلبها، وتخضب كيانها بإحساس يجمع بين الارتجاف والنقاء والسكينة والتأمل...



(27)

في الصباح.. قامت "رشيدة" من غفوتها، على السرير، إثر حُلم عجيب !... برغم ألمها إلا أنها شعرت بطمأنينة تكتنف قلبها... ألفت والدتها نائمة وبجانبها كتاب الله في حضنها.. رفت على ثغرها ابتسامة قريرة...

كان عليهن التحضر ريثما يأتيهن الطبيب ليوقع الكشف على "زينة"، فتتسلم ابنتها أوراق الخروج من المستشفى.. كانتا مُستعدتان قبل مواعيد المرور.. غير أن "رشيدة" كانت شاردة، يستحوذ حبيبها المُتأهب للسفر على عقلها وخيالها بالكامل.. تبرق في ذهنها كل دقائق صوره متصلة بحلمها العجيب !.. صورته داخل الحلم لا تُبارح ذهنها، إنه ماثل أمام عينيها، وهو يتحدث معها في حوار طويل يثير قلبها بالشجن والعاطفة...

انتظرن كثيراً.. كان مُقرراً حضور الطبيب بالساعة الحادية عشر، ولكن الساعة تجاوزت الثانية عشر ولم يحضر.. عند الساعة الواحدة عرفت "رشيدة" من تداولاتها إن الطبيب اعتذر، ولن يحضر اليوم.. ألحت عليهم أنه كان مُقرراً خروج والدتها اليوم، ولا بد من حل لذلك.. ردت كبيرة الممرضات أنه لا يجوز خروج أي مريض محجوز إلا بتوقيع مباشر على أوراق خروجه من المستشفى، وإلا لتعرضت للمسائلة القانونية والغرامة والعقاب...

لم يكن من بُد أن تُعلن "رشيدة" عن تفهمها، فهي على درجة من العلم والإدراك بحيث تفهم صواب هذه الإجراءات، وأهميتها..

لذلك كان عليها أن ترضخ لفكرة المكوث حتى اليوم التالي حينما يحضر الطبيب..

قامت بالاتصال بوالدها تبلغه المسألة.. راح يُراوغها، لكنها بشكل مُقتضب أفادته بأنهم مُضطرين للمكوث في المستشفى لحين توقيع الطبيب المُعالج على إذن الخروج.. فأعلمها أنه سيُحاول الحضور لزيارتهم وقت الزيارة، للاطمئنان..

وانتظرن.. نامت "رشيدة" على الفراش الآخر، من فرط الإرهاق والتعب، بعدما بكت في سرها قليلاً.. نامت باستسلام.. وبقت "زينة" على فراشها تقرأ القرآن..

بالساعة الثالثة استيقظت "رشيدة" على دخول أبيها، لم تقم من فراشها، إنما بقت جالسة بين النوم واليقظة، يكتسي وجهها بالتعب والأسى.. لاحظ الأب فتورها ناحيته، فتجاهلها، مُشيعاً إياها بنظرات عتاب متصلبة..

بعد عشر دقائق.. حاولت "رشيدة" أن تقوم من على فراشها، لكنها شعرت أن سريرها اهتز أكثر من المُعتاد!، ظنت أنه قد أصابها دوار، فتشبثت بأقطاب السرير، عاودتها في هذه اللحظة أصداء علقت من حلمها.. انتبهت لضحكة أُمها، وهي تقول هاتفة:

ـ ما الذي يحدث في سريري.. إنه يتأرجح بي..

لَفتهم مشاعر الدهشة !!، خاصةً عندما وجدوا أن بعض قشور سقف الحجرة راحت تتساقط عليهم، بالتزامن مع "حسن" الذي كان واقفاً يُخرج بعض الأطعمة والمشروبات التي اشتراها لهم، والذي توقف وهو يُمسك بها، يحاول حفظ توازن جسمه الذي تمايل بفعل قوة غريبة، سيطرت على كل شيء من حولهم؛ تجعله يتأرجح، ويهتز !!..

في اللحظة التالية انخلعت قلوبهم من أماكنها على أثر صرخات نساء هلعة، لم يسمعوا مثيلاً لها من قبل، ومعها تصاعدت حركة مُباغتة شديدة الضجة ماجت في العنبر، وأصوات مُثيرة شديدة الصخب انطلقت من كل صوب، كأن حرباً قد قامت..!!

لأكثر من ثلاثون ثانية كانت الأرجحة مستمرة، بأزيز مُرعب.. لما هدأت قليلاً، فتح "حسن" الباب على مصراعيه، ليرى المرضى والممرضات والأهالي الزائرين يركضون نحو المصاعد والدرج، يصرخون بفزع عاتي:

ـ زلزاااال.. زلزاال الكل ينجو بنفسه.. اهبطوا بسرعة، اخرجوا من المستشفى بسرعة... زلزاااال...!!!

كانت المُفاجأة أقوى من أي مُفاجأة عاينوها في حياتهم.. أمام هذا الموقف، وبالنسبة لرجل، فقد تلقى عقله الأمر، فتحفزت عضلاته، وانتفض من مكانه، صارخاً فيهن أن يفذذن من فراشهن، وراح يشد زوجته بيديه، ويُوشك على حملها، في حين انتفضت "رشيدة"، وركضت وهي تتخطف بضع حاجات لهن، وقد اجتاح حلمها كل وعيها، وخرجت تتبع أبيها الذي جعل زوجته تلف يدها حول رقبته، مُحيطاً ذراعه حول خصرها، راكضاً بها في العنبر، ثم هابطين على الدرج مع الحشود المتزاحمة المذعورة، حتى خرجوا من المستشفى كلها في رُعبٍ بليغ..!

كانت جموع الناس في أقصى انفعالاتها ودهشتها وتساؤلاتها..!! هل حقاً تعرضت الفيوم لزلزال ؟!.. كيف تتعرض له ومصر بعيدة عن النطاقات الزلزالية المعروفة ؟!.. وهل وصل الزلزال لمحافظات أخرى سوى الفيوم ؟!..

أسئلة لا حصر لها تتعلق بأهلهم، وعائلاتهم والمناطق الأُخرى...

أُكدت بعض إجابات الأسئلة بعد قليل، عندما عرف الناس من الجيران في المنطقة أن الزلزال وصل للعمائر المجاورة.. وهناك أنباء عن سقوط ضحايا وبنايات عالية..!

هاجت الدنيا وماجت للاتصال بالشرطة وسيارات الإسعاف.. تستغيث بهم لإنقاذ الضحايا، وتفقد الحالة العامة..

بعد ساعتين !.. انتشرت وسائل الإعلام بشكل محدود للغاية في أرجاء المدينة.. وسيارات الشرطة، والإسعاف جاءت متثاقلة مشلولة !..

أما الحاج "حسن" فلم يجد بُداً من اقتياد أسرته في هذه الفوضى العارمة بالمكان إلى منزله.. خاصةً أن سيارات الإسعاف راحت تتوارد على المستشفى من مناطق الكوارث وهي مُحملة بالجثث والمُصابين..

قادت بهم "رشيدة" السيارة حتى المنزل.. والفوضى تعم الطريق.. سمعوا عن عدة عقارات انهارت، فزادت ضربات قلوبهم.. ومضت "زينة" تبتهل بصوت متلاحق:

ـ يا رب سلم، سلم..

تُراقب هي وأسرتها سيارات الإسعاف مُتوالية تنهب الطريق من جانبهم بصوت مُفزع رهيب..

ما أن وصلوا للمكان حتى وجدوا جموع سُكان العمارة، وسُكان العمائر المُجاورة كلهم في الشارع يسدونه عن بكرة أبيهم، مذعورين، بملابسهم المنزلية، وبين أيديهم وبجانبهم بعض ما تخطفوه عند نزولهم هرباً بحياتهم من الرجة الرهيبة..

أمعنوا أنظارهم؛ فكانت عمارتهم ثابتة راسخة في مكانها.. غير أن بعض الشُرفات بها مائلة، كما أن وَضع المبنى غير مُريح، وبدا في عدة جوانب من عمدانه أن هناك تكسر وتمزق.. لمحها "حسن" بنظرة خبيرة حاذقة، كست وجهه بالقلق..

تحدث مع الأهالي وسألهم عما حصل، إلتم عليه صبيانه يقصون عليه ما حصل.. قالوا له أن الزلزال رج المنطقة كلها، وما أن أحس به السكان حتى هرعوا نزولاً إلى الشارع، حتى استقر الوضع على ما هو عليه... وما زالوا كذلك حتى يُعلن لهم خبيرٌ ما بمدى صلاحية المبنى للسكن فيه من عدمه..

لم يرغب "الحاج حسن" بالمغامرة، وتعريض ساكنيه للخطر.. لذلك أبعدهم عن العمائر بمساحة كافية لتنحيتهم عن أي أخطار مُحتملة تابعة، ثم حثهم على المُثابرة والصبر؛ حتى تحل الحكومة أوضاع هذه الكارثة الطبيعية النادرة.. وبشرهم أنه لا بد

من أن الحكومة أو المحافظة ستتخذ إجراءات سريعة للتعامل مع الموقف من جميع زواياه..

عندما استقروا بأشيائهم في موضعهم راح الجميع يتصل بأقاربه في صعوبة للاطمئنان عليهم، هناك مَن انهار لسماعه بإصابة أحد أقاربه أو موته، وهناك مَن نعى هَم أهله المشردين بعد انهيار مسكنهم...

اطمأن "حسن" على بناته، فوجدهم بخير، فحمدوا الله على نجاتهم جميعاً وسلامتهم.. وبعد استطلاعات نمت لديه أنباء عن أن أحد عمائر "عنتر بك" قد انهارت أثناء الزلزلة.. حاول الاتصال به مِراراً والسؤال عنه باعتناء، لكنه لم يعثر له على أثر!.. ففكر أنه قد يكون في أي مكان بعيداً عن الهواتف، مع احتدام وارتباك الوضع في المدينة برمتها.. فأجل الاستعلام عنه لحين تستقر الأوضاع...

انتظروا مُخيمين في الشارع بعيداً عن مُحيط العمائر حتى الليل، ولم يصدر بشأن أحد من المُعرضين للخطر أو الضحايا أي تعليمات أو اهتمامات، كما لم يصلهم أي مدد !

حاولوا فقط متابعة التلفاز، الذي استمدوه من أحد المقاهي في الحي، وأوصلوه بتيار كهرباء عن طريق كبل بالغ الطُول، ركزت قناتيه الأُولى والثانية على أخبار المسئولين واجتماعاتهم في مكاتبهم، وتبين لهم تكاسلها عن نقل أخبار الجرحى والمُصابين والصرعى وأهليهم المتحسرين!..

أذاع تلفاز الحكومة برامجه المُعتادة!.. أما عن الكارثة فقد كانت تنقلها النشرة وحدها، وحتى النشرة فقد كانت تُذيع أخباراً مبتورة، وأحاديث مُطولة لبعض المسئولين، تكررت حد السأم !

***

(28)

أعلنت النشرة خلال يومين أن الضحايا في الفيوم بلغوا عشرة قتلى.. لكن عمليات رفع أنقاض العمائر لم تكن قد توقفت بعد، فكل يوم خلال العمليات البطيئة لرفع الأعمدة والأسقف المتهدمة، يكشف العُمال عن جثث جديدة !

فيما ذهب بعض الشباب والرجال والنساء ـ ومنهم "رشيدة" ـ للمساعدة في عمليات الإنقاذ، وبعضهم تطوع في لمستشفيات، بينما يُشاهدون أعداداً متوالية غفيرة من الجثث، ومئات من الجرحى، كانت النشرة في نفس الوقت تُعلن عن بضع حالات من الضحايا والمُصابين !!

تبرم كثير من الناس من هذا الحال الراكد، والمُستفز، نقموا على سلبيات الحكومة في التصرف والتعامل مع النكبة كما لا يجب..

قضوا ستةَ أيام في الشارع بمُخيمهم الجامع!، يأكلون وينامون، ويُمارسون حياتهم اليومية في ضِيق ومُعاناة.. حتى بنىَ الكثير منهم خِيم قُماشية خاصة، وتأقلم مع هذه الحالة حتى يقضيَ الله أمراً كان مفعولا.. هناك مَن اضطر إلى مُغادرة المكان والإقامة في فندق؛ وِقاية لنفسه ولأسرته من شر التشرد والإهانة، وهناك مَن فضل البقاء بجانب منزله حتى يتم تقرير مصيره..!

في نهار اليوم السابع اجتمع ساكني عمارة الحاج "حسن" معه، تحلقوا حوله، وتحدثوا بشأن ترميم العمارة، ومسؤوليته عن ذلك ؟..

رد عليهم بأن ما أصاب العمارة هو كارثة طبيعية لا دخل له فيها، وذكرهم بأن عليهم تحميد الله على صمود العمارة على مثل هذا الزلزال الذي بلغت قوته 5.8 بمقياس "ريختر" كما كررت النشرة على مسامعهم، نقلاً عن مصادر علمية أجنبية!..

أوزعهم وحثهم على شُكر قدر الله الذي حفظ المنطقة من شر الزلزال، فلم تنقطع في بعض بقاعه كابلات الكهرباء ولا الهاتف.. وقال لهم في حزم:

ـ مسؤولية المبنى في هذه الحالة تقع على عاتق الدولة، وإنها مُطالبة الآن بالترميم والبناء، وإيواء المُتضررين وتعويضهم عن كل الأضرار التي لحقتهم..

رد أحدهم بسخط:

ـ لقد مر أسبوع على الكارثة، ولم يعبئ بنا أحد.. يجب أن يكون لدينا تصرف ما..

قال الحاج "حسن":

ـ لا يُمكنني فعل شيء في هذا الوضع المُتردي، إنني مثلكم، مُشرد، ليس لدي مسكن آخر، وليس معي المال السائل الذي يُمكنني به استعماله للانتقال لمكان آخر مثلما فعل البعض.. وفي ظني بعدما تبين لنا وكسة حكومتنا، أن هذا الوضع سيطول بنا أكثر مما نحتمل.. وقد بانت ملامحه، والحكومة لن تقوم بفعل أي شيء قبل التأكد من استقرار الوضع.. أي بانتهاء التوابع الزلزالية التالية لأي زلزال مُدمر، وبعد فراغها أيضاً من عمليات الإنقاذ والعلاج وانتشال الموتى..

استمعت "رشيدة" للحوار بعد رجوعها من ليلة مُرهقة للغاية في المشفى، غير أنها كانت مُطمئنة البال.. راعها حال الأُسر البائس، وراحت تتأملهم واحداً تلو الآخر.. أغلبهم كانوا مثل أبيها أصحاب أراضي، يفلحونها بأيديهم... تغير حالهم في عصر الانفتاح، واتجه كل واحد منهم إلى صنعة جديدة تُناسب مُتطلبات المُدن.. وها هُم الآن، قد توقفت أعمالهم كلها بسبب زلزال.. زلزال بسيط نادر بالمقارنة بالدُول التي تمر عليها أحزمة الزلازل!... أُصيبوا بالشلل، توقف حالهم، وتعذرت لُقمة عيشهم... ما كان الزلازل يضرهم شيئاً لو بقوا على وضعهم القديم في أرضهم، يسكنون ديارهم ؟..

وراحت تتخيل حياتهم، وحياتها في حقولهم.. لاحت لها أثناء خيالها فكرة مُضيئة.. ألقتها بسرعة على لسانها، لتنقلها إلى أسماع القوم المُستكينين:

ـ لدي اقتراح لكم أيها الجمع...

رفعوا إليها رؤوسهم، مُصغين لِمَ ستطرحه مُنتبهين، فتابعت:

ـ ماذا لو رجع كل فرد منكم بأسرته إلى حقولكم المُثمرة وأقام فيها، وحفظ آدميته، وصان شرفه، ونعم بالسُكنى، وأطعم جوعته، وأمن خوفه ؟..

أنصت الجميع إليها في اهتمام، تطلعوا إليها بأفواه مفغورة مشدوهين من ألمعية الفكرة.. مالت رؤوسهم تغوص مع صورة الفكرة، تُقلب أفكارها بين الماضي والحاضر، تُفتش عن إجابة تُرضي السؤال المُستفز الذي طُرح عليهم، وما لبثوا دقيقتين حتى رفعوها مُستبشرين وفي قمة النشوى.. تعالت الأصوات تُحييها، وتُبارك لأبيها فيها، داعين لها بالسعادة والرخاء.. وراحوا يستحسنون عقلية هذه الفتاة النجيبة، ويُشيدون بعلمها وتعليمها..

إنها بالفعل فكرة قيمة للغاية... كيف لم تمر على بالهم ؟!، ومُعظمهم يملك عدة أراضي بمحاذاة النهر، باقية حتى الآن، تنتظرهم...

خلال عدة ساعات.. تشاور سكان العمارة قبلها، قام على أثر اتفاقهم عدد منهم، له مواصفات معينة، بالصعود مُنفردين إلى شُققهم على مراحل... لملم كل واحد من شقته ما غلى ثمنه، وخف حِمله، ويهبط حازماً إياها في متاعه القليل؛ ليحمل أسرته إما في سيارة أو على قدمه راحلاً من المُخيم إلى داره القديم في أرضه الطيبة الصغيرة التي بقت له من متاع الدنيا..!

قامت "رشيدة" بنفس المهمة، برغم خوف أبويها ونهيهم لها عن عدم الصعود، لكنها كانت مُصرة، لأنها الأخف وزناً، والأسرع حركة من بينهم، قررت بعزم عدم تحركها من المكان دون أن تحصل على ما يخص الأسرة من نفائس وقِيم، تجلبها معهم إلى ملجأهم الجميل الذي لطالما حلمت بالمعيشة فيه يوماً..

ربت الأبوين على ظهرها وكتفيها قريرين بها، سامحين لها بالصعود بقلبٍ واجف.. وفيما صعدت ليلاً بكشافها المُبين، راحوا يُوصونها بالحذر في الصعود وبالرِفق في تحركاتها..

لما اختفت في ظلمات السُلم، ركعوا في بُقعتهم، لازمين التضرع إلى الله أن يحفظها بحفظه، ويكفيها الشر والسُوء..



(29)

دخلت "رشيدة" الشقة بحركات رصينة.. جذبت حقيبة كبيرة يحتفظون بها، فوق خزانة الملابس، وفتحتها على آخرها، وأول حاجة وضعتها فيها هي كُتبها وأوراق بحثها الذي تعبت فيه أعواماً.. بعد ذلك جذبت كثير من اللوازم التي تنفعهم بالمعيشة في دارهم هناك.. راحت تنقل في سُرعة ورشاقة كل ما يحتاجونه من احتياجات بليغة القيمة، خفيفة الوزن.. آخر الأمر شدت وِثاق الحقيبة جيداً، ثم سحبتها على الأرض بهوادة، وجهزتها أمام الباب،ووقفت بجانبها تُجفف عرقها، ثم تنهدت تنهيدة سريعة، وكأنها تستعد لمهمة أخرى قد تُوازي في أهميتها إنقاذ أبحاثها، نقبت عن هاتف الشقة، ولما عثرت عليه، رفعت سماعته، واختبرت حرارته، ما أن لسعت أُذنيها حتى غمرتها فرحة عارمة مُفعمة بالهيام، فانقضت أصابعها تطلب رقماً مُعيناً، وانتظرت ليُعطيها رنين طويل.. يرد عليها صوتٌ ما، تتداخل معه ومن حوله أصوات صخب مُريعة.. تسأله بتهذيب:

ـ من فضلك، أريد أن أُحدث الأستاذ "ماجد صبري".. إنه لديكم في الاستقبال.. مُتطوع..!

يُجاوبها عامل الاستقبال بود بالغ:

ـ بلى، بلى.. إنه هنا من حظك.. لقد أتى منذ قليل مع فوج جديد من الجرحى والضحايا، ومعهم جثتين نجستين والعياذ بالله.. لحظة واحدة..

غاب عنها قليلاً، فانتظرت وهي مندهشة من تصريحه.. بعد لحظات مرت كأنها دهور، أتاها صوته:

ـ "رشيدة".. هذا أنتِ يا حبيبتي..

ـ "ماجد".. حمداً لله لأنه أمكنني من محادثتك قبل انتقالي من المكان..

ـ طمئنيني عليكِ وعلى أسرتك.. وإلى أين ستنتقلين ؟!..

ـ الحمد لله إنني بخير.. كلنا بخير، لكننا قررنا أن نرجع إلى ديارنا الريفية القديمة قُرب النهر؛ كي نحفظ أنفسنا من الخطر والتشرد..

ـ قرار حكيم للغاية.. امنحيني عنوانكم هناك..

أعطته العنوان.. فسألها:

ـ من أين تتصلين الآن ؟

ـ من الشقة، إذ أستجلب بعض الأشياء المهمة قبل نزوحنا..

بقلق مُنفعل:

ـ كيف صعدتِ يا "رشيدة".. أليس هذا من الخطر الذي يهُدد حياتك..

ـ لا تقلق.. الله خيرُ حافظاً وهو أرحم الراحمين..

استجداها برجاء:

ـ بالله عليكِ اهبطي بتروي، ولا تغيبي أكُثر من ذلك في الشقة..

ـ الله معي يا "ماجد".. قل لن يُصيبنا إلا ما كتب الله لنا..

ـ ونِعم بالله.. كم أنا سعيد للغاية أنني لم أُسافر قبل وُقوع الزلزال.. كنت سأُجن قلقاً عليكِ..

ـ وكذلك أنا يا "ماجد".. لا أحسبني كنت سأتحمل كل هذه المُعاناة وحدي.. إنها لحظة فاصلة عندما وجدتك مُقبلاً اتجاه الحي، قُبيل مُغادرتنا منه أنا والشباب المُتطوعين، الموزعين بين المستشفيات وعمليات رفع الأنقاض..

ـ بالفعل.. لقد كنتُ أنتظر القطار في محطته باكراً، عندما شعرت مع كل المُسافرين بهزة في الأرض، فظننا أنها بسبب حركة القِطارات المُقبلة، لكن لم تكن هناك أيُ قِطارات، وبعد هدوء الهزة ركض نحونا كثير من الناس من خارج المحطة

وهم يصرخون بنا أن زلزالاً قد وقع بالمدينة، وربما بمصر كلها !!.. كان الأمر عجيباً ومُستنكراً، فنحن بعيدون عن أي حزم زلزالية أو شيئاً من هذا القبيل على حد علمي.. فخرجنا نستعلم ونتأكد من هذا الكلام؛ لنجد بعض العمارات القديمة مُنهارة في أجزاء مُتنافرة من المدينة، ولما تيقنت من حقيقة الوضع، لم يحضر في ذهني إلا أهلي وأنتِ.. عثرت بصعوبة على هاتف يهبني المعلومات والحقائق، اتصلت بذوي القُربى؛ ليزداد يقيني من أن القاهرة في حالة استنفار عارمة؛ بسبب كارثة زلزالية فادحة، انهارت على أثرها كثير من المُنشآت والمباني.. اطمأننت على أهلي، وعرفت أن هناك من أقاربي مَن انهارت عليه عمارته.. أحزنني الأمر، لكنني ما أن اطمأننت عليهم، حتى ركضت نحو حيِك، تجتاح كياني رعشة بالغة، مخافة فقدك، وعندما وجدتك بين الشباب، ساعتها فحسب تنفست الصعداء، وكدت الوقوع صريعاً من فرط انفعالي وجهدي..

ضحكت في حبور، وقالت بمرح:

ـ الحمد لله يا "ماجد".. بل أنا الذي أوشكت على الجنون.. لقد صممت على الخروج مع المُتطوعين من الشباب تغزوني النية لبحث عنك... لحقتِني قبل أن يفتك بي رعبي لو حدث لك مكروه.. لا تُصدق كم كانت فرحتي برؤيتك..

ـ لقد شملتنا ملحمة كُبرى في تلك الأيام العويصة.. ومع ذلك فقد قضينا معاً عدة أيام.. صحيح أننا كنا مُنشغلين بشكل دائم بين المستشفى العام وعمليات نقل المُصابين والضحايا إليها، إلا أنني كنت في غاية الاطمئنان والامتنان لله سبحانه وتعالى على نجاتنا، وتطوعنا معاً للمساعدة..

سادهم صمت انفعالي، ثم قال عازماً باهتمام:

ـ على كل حال سآتيكم قريباً بإذن الله..

عادت إليها ذكريات آلام ما قبل الزلزال، وقالت:

ـ سأنتظرك يا "ماجد"، لكن هل تعتقد أن مجيئك سيكون مقبولاً لدى والدي ؟

ـ لا بد أن يقبله يا "رشيدة".. هناك أحداث ووقائع كثيرة مُستجدة؛ ستدعه يعرفني حق معرفتي، ويعرف مَن كان اللعوب..

ـ ماذا تقصد ؟..

ـ ستعرفين في حينه..

ـ هل تُخفي أمراً عني ؟..

ـ لا أُخفي شيء.. لكن، لا أريد أن أُسبب حرجاً..

ـ إذن فأخبرني الآن..

تردد لحظات، ثم قال:

ـ إنه "عنتر".. لقد أتيت لتوي مع كَمٍ غفير من المُسعفين يحملون من ضمن الضحايا.. جثته..

صعقها الخبر، فهتفت:

ـ ماذا ؟ إنا لله وإنا إليه راجعون..

ـ بلى.. لقد انهارت عمارته عليه، ومنذ ساعتين استطعنا جميعاً مع أهل حيه أن نعثر على جثث تحتها.. ثم وجدناه من بينها.. العمارة كانت كبيرة، وحُطامها غزير ومُتشابك؛ لذلك استهلكنا كل هذا الوقت الطويل في إزالته ورفعه..

ـ أمرٌ مُريع.. كيف وجدتموه ؟..

ارتبك "ماجد":

ـ كيف وجدناه ؟.. ماذا تقصدين ؟.. كالعادة.. جثة يا "رشيدة".. شيء يدعو للأسى..

ـ بلى.. ليس لدي مشاعر معينة اتجاهه، لكن للموت حُرمة..

ـ حقاً.. للموت حُرمة..

سادهم وُجوم، ما لبثت أن قطعته "رشيدة" فجأة بهمة:

ـ لكنك قلت اللعوب، اللفظ له مغزى واضح، كأنك قد أخذت عليه خطئٌ ما..

ـ هل قلت ذلك حقاً ؟!، لا أدري يا "رشيدة".. لا أُحبذ إخبارك بما علمته.. حسبك أن الله أنقذك من زيجته..

ـ بلى، ولكن...

ـ لا داعي للكن حالياً يا "رشيدة".. دعينا لا نكترث بالتفاصيل، واحمدي الله على خلاصك ونجاتك من كل شر..

أمنت على دعائه:

ـ ونِعم بالله.. الحمد لله..

ثم استطردت:

ـ على كل حال لا بد من إبلاغ أبي بهذا الأمر..

ـ هل ترين ذلك ؟..

ـ بلى.. أعتقد أنه من الأهمية بمكان لصالح كل الأطراف تبليغه بالأمر..

ـ وهو كذلك.. والآن يجب أن أُنهي معكِ حالاً، ورغم أن الأمور قد هدأت منذ وقوع الكارثة إلا أنني هكذا أُعطل الهاتف عندكم..

ـ حسناً يا عزيزي.. كان الله في عونك.. سامحني لن أكون معك بدءاً من الغد..

ـ لا بأس.. لقد تعبتِ كثيراً خلال هذا الأسبوع، وأرى أنه حق لكِ الراحة الآن.. اذهبي الآن.. وترفقي في نزولك.. هيا مع السلامة..

ـ دعائك لي.. مع السلامة..

أغلقت السماعة، وهي في قمة الحبور والسعادة، ينتابها شعور غامر بأن الله في جانبها.. أحاسيس شتى، لم تشأ أن تُعطلها عن إتمام مهمتها..

فتحت باب الشقة ببطء، وراحت تنزل على درجات السلم بتأني ونظام وحذر، حتى وصلت لوالديها، الذين فرحوا بها أبلغ الفرحة..

في غمرة حزم السيارة انزوت بأبيها، أخبرته أنها اتصلت بالمشفى، وعرفت من الموظفين بمصرع "عنتر".. لم يكن عليه إلا الذهاب لتفقده، والقيام بواجب الدفن والمواراة..

انتظرته "رشيدة" مع والدتها، حتى رجع بعد ساعتين تقريباً بوجهٍ بالغ التجهم، رجحت "رشيدة" أنه بسبب صدمة موت شخص كان قريباً منه في الأيام الماضية، وكان سيغدو قُربه أوثق وأربط..

لم تشأ أن تسأله عما تم.. آثرت عدم إثارته في أي أمر يخص "عنتر" أو حتى "ماجد"، حتى يُعالج الزمن ما لم تُداويه حلولها هي وحبيبها..

سلم الحاج "حسن" وأسرته على جيرانهم في الحي، بعد العِشرة التي دامت أسبوعاً بهذا القُرب والأُنس والتآزر، خلال الكارثة التي ألمت بهم في وقتٍ واحد..

ركب الثلاثة سيارتهم الوحيدة، قادتها "رشيدة"، نحو أرضهم القريبة.. أرضهم التي يقصدونها معاً للمرة الأُولى..

بعد كل هذه السنين..!

***

(30)

وصلوا لحقلهم بالثانية عشر ليلاً، بعد عشر دقائق من انطلاقهم، حيث أن الطريق سالكاً، والحقل قريب.. وما أن وصلوا حتى تركوا السيارة، واتجهوا نحو الدار القائم وسط الزرع النامي، الذي راح يتهدهد تحت ضوء القمر الفضي فرحاً بمقدمهم، انتاب الأسرة إحساس غامر بالنشوة التي أججتها الذكريات والنسمات.. دارت رؤوسهم ببطء تتفقد أطراف الحقل وتستعيد الزمن الجميل.. ثم ولوا وجوههم شطر الدار الصغيرة المُحاطة بالمشاهد القديمة الحلوة المحفورة بالوجدان..

فتحه الأب، ودخلوا من بعده.. نور القمر يطل من النوافذ الطينية المُتهتكة من أثر الهجر، منحهم هذا شعوراً بالسكينة والاحتضان... أنارت الأُم سراجاً قديماً.. التراب يعم كل شيء.. في الأركان كثير من أدوات الزراعة، التي يُخزنها الأجير بعد عمله.. فيما عدا ذلك فكل أثاثهم البسيط موجود، مضموم على بعضه لتوفير المساحة.. أدوات المعيشة المتواضعة التي كانوا يستعملونها في الماضي مُتوفرة، وبحالتها التي تركوها عليها...

أحسوا أن الماضي حل فجأة في حاضرهم، جاء يشفيهم من غوائل الزمان.. شعروا كأن نفوسهم تُنقى من شوائب طال إهمالها، فترسبت، لكنها الآن تنصرف عنهم لتزدهر نفوسهم من جديد، بطاقة حديثة..

راودهم عجب، أن الطاقة هنا تتجدد، كما لم لم يلحظوا من قبل !!

وقف "حسن" بالخارج يتأمل حقله المهجور، يتأمل مشهد الطبيعة الخلاب الذي اكتشف الآن كم كان يفتقده.. في حين عملت "رشيدة" و"زينة" على تنظيف دارهم من الأتربة، وتنسيق أثاثه، وتجهيزه للمعيشة فيه.. انبثقت في الأخيرة طاقة عجيبة ما ألفتها الأُولى فيها من قبل.. نشاط اجتاح كيانها، وكأن فترة الزمن التي قطعتها منذ خروجها من هذا الحقل انطوت لتلتقي بنقطة رجوعها إليه.. في سرها أخفت "رشيدة" ابتسامة قريرة بأُمها، وبصحتها العفية.. في نفسها شعرت كأنها تحلم

حلماً لطالما رغبت في وُقوعه.. الآن هو في بوادر اليقين.. لذلك همست بامتنان وهي ترفع عينيها إلى الأعلى:

ـ الحمد والُشكر لك يا رب..

بعد الساعة بات المكان في غاية الترتيب والنظافة، جاهزاً للاستقبال والمعيشة.. خرجت "رشيدة" لإعلام أبيها باستعداد المكان للحلول به.. نادته بنبرة حانية بسيطة:

ـ أبي.. أبي، الدار مُتاح للإقامة فيه الآن.. إذا أردت الدخول إليه..

انتبه من شروده، ونظر إليها بعين شبه دامعة، ففوجئت به، وهتفت بلوعة:

ـ أبي.. ما بك ؟.. لماذا هذه الدموع ؟..

لم يُعلق، وحاول إخفائها بيده، فقالت بنبرة بطيئة مُواسية:

ـ لو كانت من أجل "عنتر".. فلا تحزن عليه، فهو في عداد الشهداء..

ـ كلا يا بنتي..

نظرت إليه بدهشة مُستغربة لرده، ثم غمغمت في بُطء:

ـ ماذا تعني بكلا ؟..

فاضت عينه بالدموع، واهتز جسده بأثر بكاء مكتوم، فجاشت عواطفها ناحيته، واقتربت إليه تحتضنه في حنان جارف جعله يُبادلها الحُضن بيده اليُمنى.. فيما تستجديه بنبرة مختلجة:

ـ لا تبكي يا أبي.. يعز عليَّ بُكائك.. هذه هي المرة الأُولى التي أرى فيها دموعك..

أزاح دموعه بيده اليُسرى، قال لها، وهو يُوقف بكاءه:

ـ كلا، هو ليس من الشهداء.. اسمعي يا ابنتي..

تخلى عن وضع العناق، واتخذ وَضعاً مُتقابلاً، واضعاً كفيه على كتفيها، ثم نظر صوب عينيها، وقال مُعترفاً:

ـ يا ابنتي.. لقد ظلمتك.. وأوشكت على ظُلمك ظُلما بيناً، لا يُغتفر أبداً..

ـ ماذا تعني يا أبي ؟

ـ سأُصارحك بما عندي..

وأشاح بنظره عن عينيها في خجل، قائلاً:

ـ سامحيني أولاً، فقد كانت غايتي ونيتي في نطاق صالحك التام.. وفي ذات الوقت، كنت طامعاً.. في سُلطته..

تدبرت كلامه بعمق، ثم حثته باحتواء:

ـ لا بأس يا أبي، أفصح بما عندك..

تخلى عن وَضعه الأول، ووقف بذراعين مُتواريتين خلف ظهره، وقال بنظرات مُتهربة:

ـ هناك أمرين يخصانه، يجب أن أُحدثك عنهما.. الأمر الأول، الذي أرجو أن تُسامحيني فيه.. هو أنه لولا رفضك للارتباط بـ"عنتر" من أول يوم، لكنت وقعت في مصيبة كبيرة.. فقد كان ينوي أنه بمجرد موافقتك سيُرسل عُمال البناء في اليوم التالي؛ لبناء دورين آخرين مُخالفين بالعمارة، والسعي من أجلي في إجراءات تزوير الأوراق بحيث تسمح لي بزيادة دورين، للاحتيال على القانون.. لكن حكمة الله سبحانه وتعالى جعلتك تُماطلينا..

فغرت فاها في جزع ، ووضعت أصابعها عليه صدمةً، في حين أضاف وهو يُواجهها:

ـ الحمد لله يا ابنتي.. لقد تعطل الأمر.. بعد الحادثة فهمت أنه بزيادة هاذين الدورين كان يُمكن أن تكون المصيبة أكبر على كل الأصعدة..

آزرته "رشيدة"، وتنفست الصعداء، ثم قالت تستنتج:

ـ فعلاً.. انهدام المبنى، ومقتل كثير من الأرواح.. الحمد لله..

وبشرود واستدراك:

ـ إذن فـ"عنتر" كان مُخالفا لقوانين البناء والمباني ؟..

ـ بلى، وقد أنقذنا الله بفضله علينا..

ابتهل الاثنان سوياً:

ـ الحمد لله.. الشكر لله وحده..

بعد هُنيهة طويلة اتخذ الوضع الأول، ومنحها ظهره، هارباً بوجهه منها، وقال:

ـ الأمر الثاني يا ابنتي الذي أود مُصارحتك به.. هو أنني ذهبت إلى المستشفى حتى أُوفي لعِشرة شخص كنت أتقرب منه، ويتقرب مني.. لكني فوجئت يا ابنتي.. فوجئت بالحقيقة المُرة التي شهد عليها كثير ممن أحضروه، وتداولوا قصته.. ووجب عليَّ مُصارحتك بها الآن مهما كانت مُخجلة...

توقف عن الكلام، فاستحثته:

ـ أفصح يا أبي ماذا هُنالك..

بعد هُنيهة من التردد، قال:

ـ لقد انهارت عمارة "عنتر" عليه، أهل الحي عندما كشفوا جثته، كانوا متقززين للغاية، ولم يودوا أن يحملوه.. قالوا أن الزلزال هو عقاب الله الذي أحله على البلد بسبب أمثاله، وخافوا من مسه وإخراجه.. لكن شخص اسمه المهندس "ماجد" أقنعهم بوُجوب إخراجه، ومُواراة جثته لأسباب عديدة..

سكت برهة مُستعبراً، فاستحثته ابنته على الكلام مرة أُخرى:

ـ ماذا تقول يا أبي ؟.. هذا كلام عجيب.. أفصح.. لماذا يقولون ذلك ؟..

تردد صوته، وقال بأسف شديد:

ـ إني آسف يا ابنتي.. فقد وجدوه في وضع مُخزي.. أعاذنا الله منه جميعاً.. بلا أي ملابس، تحت أنقاض غرفة نومه المُحطَمة، وفي أحضانه.. امرأة.. بنفس

الوصف، لا شيء يسترها... قالوا أن المشهد كان مُثيراً للانقباض والهلع.. ومن واقع ما توصلت إليه من خلال رغبتي في اليقين.. أنها ليست قريبته بأي صفة من الصفات.. اعترف لي أحدهم في الحي بأنه شاهدها في زينة مُبتذلة وهي تصعد إليه قبل الزلزال بساعة... إنني مُتأكد الآن أنه لم يكن على الوجه الذي مَثله عليَّ.. ولا يُمكنني الآن سوى مُعاتبة نفسي على عدم الاستوثاق منه كما يجب.. ليُسامحني الله، ولتُسامحيني يا بنتي..

سادهم وُجوم مشحون بالأسف والاستخذاء.. ثم لم تُرد أن تستغرق في هذه الذكرى.. فقد كفاها انزياح الغُمة عنها، أما الآن فقد كشف الله لوالدها الحقيقة، مع ذلك فلم ترغب أن تُطيل عليه التفكير بالأمر براً به، فعانقته بحبٍ عظيم، وقالت باحتفاء وشجن:

ـ لا يُمكنني إلا أن أُسامحك يا أبي.. لو تعلم كم أحبك، وكم افتقدت صداقتك.. أكثر ما أرقني أنني فقدت تلك الصداقة المميزة التي متعتني بها وعودتني عليها منذ صِغري، لا تتخيل يا أبي أنني قد أستخف بأبوتك مع صداقتك، كلا، لكن أبوتك عندي ترقى بها وتعلوا شُموخاً في أفاق سامقة...

ربت عليها الأب، وضحكا مُبددين جو الشجن الآسر، وقال بنبرة تجمع بين المُداعبة والصدق:

ـ ما كل هذا الكلام المعسول.. صدقيني يا "رشيدة" إنني فخور بكِ للغاية.. ومحظوظ أن لي ابنة وصديقة مثلك..

ـ بارك الله فيك يا أبتي..

ـ وبارك فيكِ يا حبيبتي..

ثم لفت ذراعها حوله، ولف ذراعه على ظهرها.. دلفا إلى دارهم بجبور، لتستقبلهم "زينة" وهي في غاية الاستبشار والسرور، مُشيرةً إليهم بالعشاء على "الطبلية"، بضع أطعمة مما جلبوه معهم، ثم وعدتهم قائلة:

ـ في الصباح بإذن الله سأعجن العجين، وأخبز الخبز.. لا يهمني ما ترغبون في تناوله بالإفطار، لكني راغبة في أن نعيش هذا الجو القديم بهذه الفترة من حياتنا.. لدي شوق عارم لمُعايشة هذه المعيشة الخلابة..

رد عليها زوجها مُتهللاً، ثم مُتضاحكاً:

ـ كما تُحبين يا سيدة النساء.. كُلنا رغبة فيما ترغبين.. لكن لا تتعودي على ذلك.. كُلها أسابيع أو شهور ونعود إلى حياتنا التي تركناها في المدينة..

ترددت قبل أن تستجمع شجاعتها، وتقول باستجداء مُغلف بدلال:

ـ لا أدري ما رأيك يا "حسن".. غير أن لدي رغبة جامحة في أن نقضي ما تبقى من عُمرنا هنا..

نظر إليها بعُمق، رأى في وجهها رجاءاً شاجناً يلحظه للمرة الأُولى في حياتهما معاً.. كان هذا غريباً!، لكنه لم يزد الحديث، وغاب في التفكير، وهو يربت على ظهرها في حنان وتدليل..

وانتابتهم السعادة الغامرة وهم يجلسون على مائدتهم الأرضية التي حنوا إليها كثيراً..



(31)

مع إشراق الشمس استيقظت "زينة"، خرجت وجلبت دقيقاً، استغلت حجرة الخبيز المُهملة، راحت تعدها للعمل فيها، نظفت تنورها الطيني، أشعلته، وراحت تعجن وتخبز وهي في قمة النشوة والمُتعة..

بعد ساعة قامت "رشيدة" نشيطة، شعرت ببهجة وانتعاش بالغين.. جلست بجانب والدتها وهي فرحة بهذا المظهر الذي كانت تعيشه في الماضي، أيام البراءة والصِغر.. ثم فجأة هبت وهتفت بمرح:

ـ أنا سأملئ أجفان الماء من النهر، للوضوء والاغتسال..

وافقتها أمها، لم تجد إلا جفنة واحدة سليمة من بين المكسورين.. أخذتها، وتمشت بين الزرع، وهي تشعر أنها ما زالت نائمة تحلم بحلم وردي جميل.. السماء في قمة روعتها، تدور أسراب الطيور بها تُحيي المُنتشرين الدابين على الأرض.. الأرض مُفترشة بأبسِطة خضراء حية، تلتمع بضوء الشمس الذهبي..

مشت وهي تتقافز كطفلة، تشعر كأنها تملك العالم.. لا أحد يراها في هذا الوقت من الصباح الباكر، فكل المباني القريبة منها على بُعد اثنا عشر قيراطاً، مُعظمها ساكناً يستغرق أهلها في نوم عميق... حتى إذا اقتربت من حافة النهر، سلمت عليه، وراحت تُكلمه بعشق وحماس تُعبر بكيان شاعر:

ـ يا نهري العزيز.. ها أنا ذا.. تأخرت عليك بضعة أيام، لكنني عُدت إليك.. ما أشوقني إليك.. هذه المرة سأبقى معك طويلاً.. لا أدري إلى أي مدى.. لكنني سأسعى لأن أكون بجانبك على مر الأعوام..

نظفت الجفنة بالماء، ثم ملأتها منه، أحبت أن تحملها على رأسها كما كانت الفتيات الريفيات تحملنها قديماً.. أخذت طريق العودة، وراحت تمشي مثلهن، بنفس حركتهن التي نُقشت في ذاكرتها مُذُ كانت صغيرة..

من هذا الصباح بدأت حياتهم تتخذ نمط المعيشة الريفية التي عاهدوها منذ نشأتهم..

برغم ذلك فلم تخلع "زينة" كل ملابسها الجديدة، عاشت بها تُبدلها مع ملابسها القديمة.. وكذلك "حسن".. أما "رشيدة" فلقد مالت كثيراً للاتشاح بملابس الريف، وإن كانت تُغيرها بملابسها المدنية الجديدة عندما تذهب لجامعتها لإلقاء المُحاضرات..

لم يتخلوا عن كل حياة المدنية، بل جددوا حياتهم، أحلوا كل ما احتاجوه من حياة المدنية في مكانهم القديم!، فصنعوا مزيجاً راقياً للغاية مما يحلم به القُدماء والمُحدثين في نَيل كل مميزات العالمين دُفعة واحدة !

اندمجت "زينة" في حياتها، لم تعد تهتم كثيراً بمسلسلات التلفاز، تنشغل باستمتاع واندماج في صُنع طعامها وطعام أسرتها بنفسها، تحيك لهم ملابسهم مثلما كانت تفعل في الماضي، وكانت تتزاور مع جيرانها القليلين في القرية، باعتدال ورُقي..

وكذلك الأمر بالنسبة لـ"حسن".. أينعم لم يكن لديه جيراناً أو معارف مثلما كان في القديم بعد هجر أكثرهم عن الزراعة، إلا أنه قنع بما لديه من صُحبة أصيلة.. عمل مع أجيره في زراعة حقله، وقام بعدة مشاريع صغيرة، فلقد تاجر في المواشي، ووظف من الأُجراء الأُمناء ما أعانوه على تربيتها ورعايتها وبيعها..

ذلك التطور جعل "رشيدة" تستنتج استقرار والديها الكُلي هنا في الريف بكل بساطته وجماله، مع استعمالهم لوسائل المدنية وأجهزتها.. وكذلك بعد أن ذهب والدها لاستقدام مهندس قام بالكشف على عمارته، والذي أقره على عدم مغامرته بالمبنى أو بالسُكان، أعلن له تقريره بأن البناية آيلة للسقوط، وأعمدتها مصابة بخلل بالغ من أثر الزلزال، وتحتاج لترميم غير هين، وأخرج له شهادة بذلك حتى يُمكنه استخدامها لدى الدولة؛ لإعادة ترميمها ككارثة طبيعية ألمت بالممتلكات.. ومسؤولية الدولة تقتضي تعويض الناس عن هذه الأضرار التي لحقت بالبلد ككل... وبالطبع وجد صعوبة في تحقيق ذلك، فالإجراءات كثيرة، وتهرب الحكومة بات مُعتاداً.. كان يُمكنه ألا يلجئ للدولة لو كان يملك ما يُمكنه ترميم البناية به، لكن ما معه سيُخرجه كُله من أجلها.. لذلك مكث شهراً في أزمة نفسية بسبب إلحاح السُكان عليه أن يجد حلاً لتشردهم، وحاجتهم للسكن في مساكنهم بالعمارة.. وفي أحد الأيام اقترحت عليه "رشيدة" الجلوس معهم، والاقتراح عليهم بفكرة المُشاركة جميعاً في الترميم، وبالفعل جلس معهم وعرض الفكرة عليهم، فوافق أكثرهم لما أقنعتهم "رشيدة"، على أساس أن الكارثة

حلت على الجميع، ولم تكن بسبب ضعف البناء، بل بشدة أثر خارجي ألم بها.. وبدأ العمل على ذلك..

أما "رشيدة" ومعيشتها.. فقد كانت تنطلق كل يوم صباحاً إلى كليتها، ثم ترجع شغوفة لتغيير ملابسها بالريفية الأنيقة التي تميز بسحتها المدنية، ثم تُساعد والدتها في طعام الغداء.. وعند العصاري، فيما يخرج والديها للجلوس عند نخلة بجانب دارهم يشربون الشاي، تجلس هي عند شجرة الصفصاف المُطلة على النهر، معها كُتبها، وقلمها وبحثها تقرأ وتكتب.. وتشرد فيما حولها من مظاهر خلابة، ثم تُخاطب صديقها النهر في حديث طويل مُلهم بديع..

حتى بأحد المرات أثمرت مُحادثته معها كثيراً، فلقد كانت تقول له في شرود:

ـ أتدري أيها النهر الحبيب أنك أنقذت هذا الحقل من الضياع، وكذلك أنقذتني.. لا مراء أنك أنقذتنا جميعاً من الضياع والشتات والغُربة والتشرد.. لأن البناء قُربك يُعرض المباني للخطر.. فأبقيت على حقول الضفاف من أجلنا.. من أجل الوفاء بصداقتي.. فالشكر لك أيها المُخلص النابع من جنة الله في السماء..

سرحت في ترقرق الماء.. وظهر التفكير العميق على صفحة وجهها اللامع بضياء الشمس الشاحب المُنعكس على صفحة الماء... وفجأة.. برقت عينيها بريقاً كأنما سطع من عُمق عقلها، وصاحت بصيحة الظفر والانتصار، راحت تُعيد أفكارها على لسانها لتزداد يقيناً:

ـ لو كانت المباني محظورة عُرفياً على ضفاف النيل، فلا بد أن لهذا أسبابه، فالبناء يحتاج لتأثيث أعمق من المطلوب، وكذلك لأن المباني قد تتعرض لمخاطر مثل الغوص في طينتها، وتُعرضه للاندثار.. لكن لا بد أن عملية الزحف بين القارات ينطبق أيضاً على الفواصل الطبقية في الأرض مهما كانت الفروقات بينها...

راحت تُسجل أفكارها على الورق، وهي مُتحمسة، وعينيها تزداد اتساعاً مع كل اكتشاف كان يختفي وراء النظرية الأساسية..

وطوال اليوم ظلت تقرأ وتُدون ملاحظاتها، وتكتب كما لم تكتب من قبل..!

***

(32)

في اليوم التالي لما كانت في الكلية، قابلت "ماجد".. البشاشة تجتاح كيانهم، تبددت الغمامة التي كانت تعلو وجه كل منهم، وجههم الآن خالي من الهم والكدر.. كأنهم وُلدوا من جديد.. كأنهم كانوا يواجهون معاً كابوساً مُريعاً، يفرقهم ويعزلهم، وها قد استيقظوا منه ليجدوا أنهم ما زالوا معاً، وخابت خطة الشيطان التي عبثت بآمالهما..

عادت الحياة بهدوئها بعد عاصفة هوجاء مريرة أوشكت أن تطيح بهم كلٌّ في موقع.. استقرت الأرض بعد زلزال رجهم رجا، حسبوه شراً لهم، وهو المنجى لهم والرحمة عليهم..

اتخذوا مجلساً وقوراً.. بكل حب وتيم بدا كل منهما شغوفاً بالآخر أكثر حباً له عما قبل.. قال لها بكل هيام:

ـ اشتقت إليكِ..

خفضت رأسها وتوردت وجنتاها بأنوثة أجمل من عشرات الورود الحمراء في الحديقة، وردت بهمس:

ـ وأنت أيضاً..

سأل مُداعباً:

ـ أنا ماذا ؟..

ردت بعينين مُتهربتين:

ـ أنت اشتقت وأنا اشتقت..

راوغها مُداعباً:

ـ إذا كنت اشتقتُ إليكِ، فلمَن أنتِ اشتقتِ ؟..

ـ أنت تعرف..

ـ لا أعرف.. وليكن، أود سماعها منكِ..

ـ حسناً.. لن أقولها إلا في وقتها..

التقط نبرة التلميح في صوتها، فغمغم مُندهشاً:

ـ وقتها ؟.. ومتى هو وقتها ؟.. ليتكِ تُفصحين..

ـ عندما تكون مُستعداً للحضور..

اعتدل في مكانه، وتغيرت ملامحه، وقال:

ـ كلامك له دلالات لم ألمسها منكِ قبل الآن.. هل حقاً تُنوهين عما أُفكر به ؟..

أومأت برأسها إيماءة خفيفة، وقالت:

ـ أها، ألم تلح عليَّ كثيراً..

ثم افتعلت وضعاً ذي كبرياء، وقالت:

ـ على كل حال إذا لم ترغب الآن، ففرصتك قد تضيع، فلدي صف طويل ينتظر..

ضحك، فيما بقت مُتمسكة بوضعها المُتعالي المُتأنف مرحاً، وهتف:

ـ أتمزحين ؟.. لدي حجز مُتأخر..

وضحكا سوياً.. ولما خف مرحهم قال جاداً:

ـ لم أرغب في زيارتكم، ولم أعرض عليكِ ذلك إلا لأني شعرت أن الظروف تتخذ مساراً في صالحي..

أومأت برأسها مُتفهمة:

ـ أُدرك ذلك، لكنني حينها توجست من آخر لقاء بينك وبين أبي..

أيدها بإيماءة، وتابع مُبرراً:

ـ لذلك تراجعت، وآثرت ألا أخطو هذه الخطوة إلا عندما أشعر باستعدادك واستعدادكم لذلك حقاً..

أردفت كأنها تلتمس العُذر:

ـ أبي تغير يا "ماجد".. اكتشف كثير من الأمور المخفية عن "عنتر" بعد مماته.. كارثة الزلزال هزته من أعماقه، كأنه وُلد من جديد، إنه يُعيد اكتشاف أفكاره وحساباته كلها نحو كل شيء قبل لحظة الكارثة..

ـ الكل الآن يُعيد حساباته يا "رشيدة".. لقد مررنا بتجربة عصيبة..

ـ هناك مَن أثرت فيه التجربة، واستفاد من درسها.. وهناك مَن خُتم عليه وأُخذ بها..

ـ بلى، ورحم الله قوماً رُفع عنهم ظلم الهالكين.. لابد أن تُنقى ساحة الفساد، ويُسَد فراغها..

ـ أفهمك.. إعصار يُثير الأرض فيُنقيها من الأدناس، وزلزال يهدم ليرفع..

ـ تماماً.. أكُنتِ تعلمين أن "عنتر"كانت له علاقة ببعض الأشخاص الفاسدين في الجامعة..

ـ لم أكُن أعلم، لكنني استنتجت من مصائب أُخرى..

بامتعاض:

ـ أتدرين.. دعينا نقطع حديثنا عن الهالكين؛ لنستغل منح الله علينا، ولنُصلح الأرض مُعتبرين من دروس السابقين..

وافقته في اقتناع:

ـ لديك كل الحق..

سكتوا قليلاً.. لكنها هبت قائلة بجزل بدد السيرة المُقبضة تماماً:

ـ لدي مُفاجأة لك خاصة ببحثي.. لقد استنتجت بعض الحقائق أمس..

أعارها انتباهه الكامل في تحفز، في حين أردفت في حماس:

ـ إنها مُلاحظة، أود دراستها على ضفاف النهر.. فمسألة زحف القارات قد تنطبق أيضاً على ضفتي النهر.. هذه زاوية مهمة أحتاج لقتلها لبحثاً، ولا بد أن تُساعدني فيها..

أومئ لها برأسه مُوافقاً في حماس، علامة المُساندة، فتابعت هي بشبه فتور:

ـ ولا بد أن نستعين ببعض الأدوات والآلات من القاهرة..

استعار نبرة حماسها الأُولى، وقال مُشجعاً:

ـ سأُحاول الحصول على تراخيص من أجلك سأستوردها من جامعة القاهرة..

ـ جيد.. وإن كنت أُفضل الحصول على بعض الأدوات والآلات المُتوفرة حالياً في المدينة من أي منفذ بيع، فضلاً عما لدي من الآلات..

ـ لا بأس..

ضاقت عينيها في أمل وخيال:

ـ أتدري يا "ماجد".. لو صدقت نظريتي فستكون النتائج جد خطيرة، لها علاقة بالزلزال الذي ضرب مصر..!!

هتف مبهوراً، ثم سعيداً:

ـ يا إلاهي.. أحقاً يا "رشيدة" ؟.. هذا تطور غريب في أفكارك إزاء رسالتك !.. أعتقد أن هذا الهدف سيكون نِعم المُعين على تسهيل مهمتك..

ـ هذا ما أرجوه.. والله المُستعان..

ـ ونِعم بالله..

***

(33)

قُبيل الغروب تزينت السماء بألوانها الخلابة تحتفل بشمس اليوم قبل أن ترمي بنفسها في النيل كعروسته اليومية لتفني نفسها فداءاً لدورة الحياة المُستمرة..

على زورق واسع مُجهز بمُحرك بخاري، يمخر عباب النهر بطوله، انهمكت "رشيدة" بمساعدة "ماجد" في العمل على بعض أدوات القياس والكشف... بعد مدة جلست قُرب الآلات، وتنهدت بإرهاق، ثم غمغمت، وهي تمسح العرق من على جبينها:

ـ أعتقد أننا انتهينا.. إنه الوقت المناسب للانتهاء من العمل اليومي مع انتهاء النهار..

رد "ماجد"عليها، وهو يُلملم الأشياء في الحقائب:

ـ شهراً كاملاً، نخرج من الإشراق حتى الغروب، على هذا القارب وعلى الضفاف المُحاذية لأراضي الفيوم، نعمل بكد على هذه الأجهزة.. أعتقد أن لديكِ نتائج باهرة الآن..

ـ بالفعل.. لقد تعلمت وعرفت الكثير... التجربة العملية أفضل بكثير من الدراسة والقراءة في الكتب..

بامتنان وحب:

ـ هذا حقيقي يا "رشيدة".. لقد ازددتُ علماً بمصاحبتي لكِ.. كم أنا فخورٌ بكِ..

ابتسمت، فاختفت مسحة الجدية من على وجهها الذي اكتسى كاملاً بالخجل، وهي تُتمتم:

ـ أشكرك يا "ماجد"..

ثم أردفت في امتنان بالغ:

ـ لا أدري أنا كيف أجزيك شُكراً على صنيعك معي ومساعدتك لي بدون كلل.. أنت نِعم الرفيق..

مال عليها، هامساً في مرح:

ـ ليتني أكون نِعم الزوج..

تخاذلت في نفسها خجلاً لمُفاجئتها بدُعابته، وأراد ألا يزيد خجلها، فقال:

ـ إنني مُستمتع بمؤازرتك ومُساعدتك.. فلا مجال للشكر.. بل الأحرى بي أنا شُكرك على إتاحتك لي الفرصة لهذه الرحلات العلمية الراقية.. بعثتي فيَّ الأمل إزاء مستقبلي..

ضحكا سوياً.. وكان قد ساق بهم العامل البسيط، الكامن جانب المحرك، بآخر القارب؛ حتى شاطئ النيل، فنزلا منه، وحمل "ماجد" حقيبة الأجهزة والمُعدات الثقيلة على كتفه بينما حملت "رشيدة" بعض الدفاتر والمُعدات الخفيفة.. وبين الزرع الداكن تحت ملاءة الليل المخملية مشيا في الطريق إلى دارها.. برغم التعب فقد اجتاحتهم مشاعر نشوى وهُما يمشيان مترافقين.. وقد بدا القمر فوقهم ساطعاً في السماء بأحلى صوره المُكتملة، يعكس ضوئه على الطريق أمامهم، كأنه طريق ممهد بفضة أو كأنه بطريقة سحرية اكتسب صفة النقاء من قلبيهما بمجرد لمسه بقدميهما.. حمل كل منهم ابتسامة بديعة، لا تنتمي للدنيا، ابتسامة ملائكة تعيش في جنة..

شملهما الصمت، صمت مستعذب.. ظلا في طريقهما يتمشيان بلا تعجل، كأنهما يتنزهان.. قطع "ماجد" حبل الصمت:

ـ إنني سعيد لقُرب انتهائك من رسالتك.. ونتائجها ستكون رائعة بإذن الله..

تبرمت "رشيدة" وهي تقول في حسرة متصاعدة:

ـ هذا صحيح.. ومع كم المعلومات والإيجابية التي اكتشفناها، إلا أننا اكتشفنا كثير من السلبيات أيضاً يا "ماجد".. وإنها لتؤرقني الآن أكثر من مجرد البناء على أراضي حوض النيل..

تفكر وهو يُومئ برأسه في بطء:

ـ فعلاً يا "رشيدة".. المصانع التي رأيناها قد نشأت على هذه الأراضي بطول ضفتي فرع النيل، أمر يدعو للحزن..

ـ الأدهى أنها تُصرف مُخلفاتها في النهر نفسه..

ثم بحزم مُغضب:

ـ هذا أمر يحتاج للتبليغ عنه، ومُحاسبة المُخالفين والمُفسدين..

بموضوعية وحيادية:

ـ لا تنسي أيضاً أنها ليست الوحيدة، فالمزارعين والأهالي يتعاملون مع النهر كمجاري أساسية..

ـ لكم آلمني هذا.. الإشكالية أن هؤلاء مُضطرين لفعل هذا الفِعل المُشين، فالدولة لا تُوفر لهم هذه الأساسيات المعيشية الضرورية ..

ـ لكن هذه السلوكيات خطيرة للغاية.. هذا النوع من المُلوثات يؤدي لأمراض خطيرة منها الفشل الكلوي..

في حزن وأسف شديد:

ـ فليرحمنا الله.. ليرحم الله هذا البلد من الإهمال.. فالإهمال له أبعاد خطيرة من كل الجهات، الحكومية، والصناعية، الزراعية، والشعبية..

أمن على دعائها، وأدار دفة الحديث لمنطقة إيجابية كما هي عادته:

ـ المهم، هل استطعتِ إثبات نظريتك ؟

استجابت معه بمرونة، وأجابت:

ـ لحدٍ ما.. بنسبة أربعون بالمائة، وهي نسبة ليست بالقليلة كما قد تتصور؛ نظراً لقِصر يدنا من الأجهزة والأدوات، محدودة الفاعلية..

ـ جيد.. إذن ما خطوتك التالية ؟

بصيحة ارتياح، ثم بموضوعية:

ـ إنهاء الرسالة... أُدرك أنني لن أصل لنتائج أكثر مما حصلت في الوقت الحالي، لكنها خطوة أُولى نحو اليقين..

ـ رائع.. إذن اشرحي لي ما توصلتِ إليه بشكل مُختصر..

ـ سأُخبرك..

شرد ذهنها هُنيهة، ثم قالت بهيئة عالمة فذة، وهي تُعدل عويناتها على أنفها:

ـ الأراضي قُرب فروع النيل الكُبرى ليست مُهيئة للعمران عليها وبناء العمائر.. الطبقة التحتية لحوض النيل حدث لها اختلال، ساعد على حدوث الزلزال..

صاح "ماجد" مدهوشاً:

ـ لم أفهم.. كلامك يبدو هامشياً للغاية..

ـ انتظر حتى أشرح لك بالتفاصيل العلمية..

ـ تابعي أيتها النابغة..

ضحكت، ثم استعادت جديتها، وقالت مُوضحة:

ـ طبقة الأرض الطبوغرافية أضعف من أن تحتمل المباني وخرساناتِها وحِجارتها وطينتها المختلطة بالزلط والرِمال.. إنها أثقل من أن تحتملها هذه الأراضي الهشة، القريبة من الماء.. خاصةً مع جريان الماء، بما يحمله معه من طمي وحصى ورواسب جارفة.. وعبر كل تلك السنين تصدعت القشرة التحتية المُلتحمة بين ضفتي النيل وفروعه، وحصل ما حصل.. ولهذا علاقة وثيقة بالقاع السُفلي لفروع النيل، والنيل نفسه.. نظرتي أيضاً تُقوي من هذه الفكرة كثيراً.. كيف..

تجاوب معها باهتمام:

ـ بلى، كيف ؟.. أخبريني، إنني في شغف لمعرفة العلاقة بين ما تقولينه ونظرية زحف القارات..

ضحكت، وقالت:

ـ سأشفي شغفك.. ولكي أتحدث في هذه النقطة ينبغي أولاً أن أرجع للوراء كثيراً..

واستعادت هيئة العلماء، قائلة بنبرة هادئة:

ـ باختصار شديد.. تعرف أن نظرية زحف القارات مبنية على أن القارات الموجودة حالياً كانت في القديم عبارة عن كتلة يابسة واحدة، إلى أن تفككت تلك

الكتلة إلى أجزاء عبر مائتين مليون سنة، وكونت القارات التي نراها حالياً.. وفي هذا كلام كثير للعلماء... الذي شغلني وشغل كثير من العلماء أنه كيف تحركت هذه الكُتل القارية الضخمة ؟، وما الذي دفعها إلى ذلك ؟!... هناك بحوث كثيرة في هذا المجال، تُحاول الإجابة على هذا السؤال.. سأعود إليها بعد نقطة هامة أثرتها في بحثي..

أطرقت برأسها كما يفعل الجهابذة، ثم رفعت رأسها بشرود، وراحت توصف بعين جامحة:

ـ تطرقت بعد ذلك لمعرفة عُمر نهر النيل.. ووجدت أنه نشأ منذ ستة ملايين سنة مضت، وشكله الحالي يختلف عما كان في الماضي، فقد وصل إلى هذا الشكل بعد سلسلة تغيرات جذرية خلال عُمره كله.. حتى أن هذا النيل ليس هو الذي نشأ منذ هذا الرقم من السنين... وللبُعد عن التفاصيل المملة سأختصر كلامي.. فمنذ حوالي عشرة آلاف عام زادت الأمطار على الهضبة الأثيوبية ومنطقة الساحل الأفريقي الشرقي كلها، وفي هذا الوقت امتدت جبهة المطر شمالاً لتُغطي شمال السودان وجنوب مصر.. ولمدة أربعة آلاف وخمسمائة سنة ظلت هذه المناطق ممطرة، وبوصول المياه الغزيرة من المرتفعات الأثيوبية وهضبة البحيرات وُلد النيل الحديث الذي أصبح مستديماً حتى الآن.. وفي فترته الأُولى زادت أمطار تلك المنطقتين من مياه النيل، وارتفع منسوبه، فرسب الرواسب التي يحملها في واديه ودلتاه بين ثمانية وسبعة آلاف سنة مضت، فتكونت أرض مصر الخصبة التي نعيش فيها منذ هذه المدة...

تنفست بعُمق وبانتظام، ثم تابعت بحماس بطيء:

ـ نأتي الآن للدلتا وهي عين ما أبحث فيه، ولك أن تعلم أن هذه الدلتا هي آخر دلتاوات عديدة تعاقبت على هذا الموقع.. ودون الدخول في تفاصيل أيضاً.. فالمعني ببحثي هنا الدلتا الأخيرة الحالية التي تزايدت فروعها ونُحتت أعماقها ما بين سبعة وثمانية آلاف سنة.. هذا النحت وصل للقشرة الأرضية، فقد وصلت التربة السطحية إلى سبعين قدم، ومُعدل تآكل تربة دلتا النيل هو خمسين كيلو متر.. قُرب الفيوم من

الجهة الشرق لدينا فرع من النيل وهو المُسمى ببحر يوسف، ومن الجهة الشمالية الغربية بحيرة قارون، وهي من أعمق البحيرات، تتواجد تحت وادي مُنخفض، والمُنخفَض يتكون من حجارة جيرية هشة تعرضت للتآكل السطحي والتآكل العميق خاصة مع دخول المياه إلى المنخفض منذ أمد بعيد.. ومياه البحيرة مالحة، وسبب هذا أن مياه البحر الأبيض المتوسط تتدفق من خلال مجرى نيلي قديم جف وما زالت أثاره موجودة حتى الآن..!

بدا "ماجد" في غاية الإنصات والاستمتاع، عينه على اتساعها، وفمه مفتوح نصف فتحة، كأنه يتلقي من خلاله ما يُذهل عقله، ابتسمت "رشيدة" حينما لمحته، فذوى ما بين حاجبيه، وتساءل عن ضحكها:

ـ علاما تبتسمين ؟

ـ تبدو غريباً..

عاد إلى هيئته المعتدلة، وقال:

ـ إنني مشدوه لكم هذه المعلومات...

ـ هذا مُلخص بسيط جداً بالمقارنة بما تحتويه الكتب، وبما توصلت إليه في تجاربنا..

ـ إذن فأكملي..

ظهر على وجهها الأسف، وقالت:

ـ استغرقنا وقتاً طويلاً، وها هو الدار قد لاح..

أشارت بيدها في جهته، فنظر تلقائياً، واكتسى وجهه بالأسف، لكنه هب قائلاً في استجداء:

ـ قبل أن تذهبي أود أن تعلني لي النتائج الجامعة.. أرجوكِ..

ـ أها.. ولكن..

ـ أرجوكِ..

ـ حسناً.. سأُلخصها لك سريعاً... كل هذه العوامل التي ذكرتها لك أدت إلى حصول الزلزال.. وهذا ما قد أدهش المصريين، فمصر بعيدة عن الأحزمة الزلزالية..

ـ فعلاً.. كلنا كنا في دهشة جامعة...

أومأت برأسها تصديقاً على كلامه، ثم تابعت:

ـ وإنما نشأ الزلزال بسبب ضعف في الصفيحة القارية.. وأُذكرك بالنقطة التي أوقفتك عندها قبل الانتقال لمنشأ نهر النيل..

ـ صحيح، ألا وهي كيف تنزاح القارات، وما علاقة ما تقوليه بالزلزال ؟..

ـ تماماً.. سأُخبرك.. الصخور الساخنة ترتفع من داخل عُمق طبقة وِشاح الأرض الواقعة أسفل قشرة الأرض.. سطح الأرض يكون بارداً، فيُبردها، وحينئذٍ تغوص الأرض عائدة نحو طبقة الوشاح لتُعوض مكان الصخور الساخنة.. هذه العملية تتم باستمرار، وتحصل ببطء شديد !.. صفائح الأرض من الغلاف الصخري تنزلق على طبقة لينة في داخل الوِشاح.. وتحرك الصفائح يحمل الأرض كلها على التحرك !... وإليك الخطير في الأمر.. أن الذي ساعد على انهيار هذه الصفائح بسرعة وتخلخلها هو بناء العمائر المُتكاثر على هذه الطبقة الهشة..

ضرب "ماجد" جبهته بكف يده، وهو يهتف:

ـ يا إلهي.. يا لها من نتيجة مُذهلة.. إنه تفسير علمي وجيه جداً.. يا لكِ من عبقرية..!

ـ ليست عبقرية.. إنما هو نتاج بحث ودراسة طويلين.. ولا تنسى أنك ساعدتني نظرياً وعملياً حتى نصل لنتائج تُناهز الأربعون في المائة من الحقيقة كاملة..

ـ أدهشتِنِي !.. إذن فالعمارات التي غزت بلدكم هي سبب كارثتكم..

ـ بلى.. ولعل النتيجة التي نخرج بها أن أراضي حوض النيل ليست صالحة للعمران، ولا تصلح إلا للزراعة.. هذا من حكمة الله عز وجل..

وكان ما قالته مُثيراً للتفكير طويلاً، وللدهشة كثيراً، وللقلق خطراً..!

***

(34)

وقفت "رشيدة" في قاعة مناقشة رسالة "الماجستير" الخاصة بها، في زي التخرج الأسود، مُتوجة بقبعة العلماء فوق حجاب رأسها الراقي، أمام منصتها، بحضور لجنة تألفت من الأساتذة الذين يُدرسون في قسمها بالجامعة، ومن ورائها على المدرجات جلس كثير من معارفها، والديها وأخواتها وأزواجهن...

بآخر صف من الخلف تابعها "ماجد" بفخر عارم وحب جارف، وهي تشرح رسالتها ونظريتها على نماذج رسومية، تقوم بتفنيدها وعرضها في تركيز شديد، رداً على الأسئلة التي يمتحنها فيها الأساتذة، المشدوهين، يُومِئون برؤوسهم في اقتناع وإعجاب...

بعد حوالي ساعتين ونصف كانت اللجنة قد استنفدت جهدها في المناقشة؛ نظراً لقوة النظرية وحداثتها، فاختلى أعضاءها ليتداولوا المناقشة، من أجل إصدار قرار تقييمها..

بدت "رشيدة" في قمة توترها واضطرابها، تنظر من حين لآخر للخلف، فتلتقي عينها بعين "ماجد"؛ لتُطمئنها بثقتها وفخرها، فتُعيدها تجاه مدخل الأساتذة، وتتخيل مُراجعاتهم، ومُداولتهم، فتُصاب بالأرق والقلق.. وهكذا دواليك..

بعد وقت لم تُحدده، بدا لها كدهر طويل.. دخل الأساتذة، وفيما هُم يقعدون، أشار لها دكتور "محمد"، المُشرف على رسالتها إشارة خفية بالتفاؤل، قبل أن يقوم رئيس اللجنة بإعلان النتيجة:

ـ بناء علي موافقة مجلس الجامعة للدراسات العُليا ومجلس القسم علي مناقشة الرسالة الخاصة بالطالبة "رشيدة حسن محمود"، وعنوان رسالتها (أثر العمران على البنية الطبيعية "الطبوغرافية" لحوض النيل)، وبناء علي التقارير الفردية المقدمة من لجنة الحكم والمناقشة، وبناءاً علي ما تقدم به الطالب من سرد لمحتويات الرسالة، وقامت لجنة الحُكم والمناقشة بمناقشة الطالبة مناقشة وافية، فقد قررت اللجنة... منح الطالبة "رشيدة حسن محمود" درجة الماجستير في العلوم والتربية قسم الجغرافيا في تخصص علم الأرض (الجيولوجيا)...

ضربت "رشيدة، قبضتها في الهواء علامة الظفر والانتصار والنجاح بينما هاجت القاعة بفرحة عارمة من الأهل والمعارف، وانطلقت عدة "تغاريد" صداحة من حناجر عدد من النساء والبنات، وراحت الأصوات تنهال عليها من كل حدبٍ وصوب

بالمباركة والتهنئة والتغريدات، احتشد الجميع حولها، الرجال يُسلمون عليها، والنساء يُغدقنها بالتقبيل والأحضان والتبريكات...

حاولت بشتى الطُرق أن تلمح حبيبها خلف القاعة، لكنها فشلت من تجمهر الرؤوس حولها.. أرادت أن تُشاركه الفرحة، فهو الشخص الوحيد الذي دعمها بكل قوته، وقد ذكرت هذه النعمة لوالدها، فلمست منه استحساناً وإعجاباً خفياً بـ "ماجد"، وإن كان لم يُعلق..!

انهمرت في البُكاء.. وما عادت تدري لماذا تبكي.. أبسبب فرحتها بنَيل درجة "الماجستير" أخيراً بعد عامين ونصف، أم بسبب بُعد حبيبها عنها في هذه اللحظة الحميمة، وكانت تتمنى أن يقف بجانبها يُشاركها فرحتها..

بدأت الحشود تنفرط وتنحسر عنها، فاشرأبت برقبتها، تدور بها باحثةً عنه، فلم تعثر له على أثر.. فجأة سمعت صوتاً رصيناً من ورائها يُهنأ والدها باحتفاء، يقول:

ـ ألف مبروك يا حاج "حسن" على نجاح "رشيدة" الباهر..

فالتفتت لتُبهت بمثول "ماجد" قريباً منها، يُصافح أبيها بحرارة، وهو في قمة أناقته، ووالدها يُبادله التحية بسرور وبهجة، ويقول له:

ـ أشكرك يا ولدي.. العُقبى لك بإذن الله.. بلغني مؤازرتك لـ"رشيدة"، بالغ تقديري لك..

ثم استأذن منه ليُهنئ عروسة العلم، فتقدم منها، بدون أن يُصافحها، وهنئها بكلمات رقيقة للغاية، فشكرته "رشيدة" بحيادية وارتباك..

وخرجوا جميعاً في زفة رائقة مُفعمة بالفخر والعزة والنجاح، إحساس لطالما شعرت "رشيدة" أنه أعظم من عشر أعراس مُجتمعين في وقتٍ واحد..

وفي أثناء ركوبهم للسيارة، لمحت "ماجد" يتحدث مع أبيها، ثم يتصافحا بحرارة قبل أن يتركه الأخير للركوب، ويقف الأول في زينته على بُعد، يبتسم لـ "رشيدة" المتوجسة، ويُشير لها إشارة خاطفة بيده مُودعاً..

ظلت طوال الطريق إلى بيتها مشغولة بهذا المشهد الأخير...

وفيما وصلوا الدار الريفية !.. الأمر الذي بدا في ذروة طرافته، أن تخرج طالبة "ماجستير" من دار بسيطة في حقل زراعي، ثم ترجع بعد نجاحها بتفوق في رسالتها العلمية الرفيعة إلى دار ريفية شبه بدائية !!

أُعدت "الطبلية" بأصناف الطعام الشهية، احتفالاً بهذا اليوم المُشرف الميمون المُفعم بالفخر والريادة.. لا تمر خمس دقائق كاملة إلا ويُمطرها الأبوين بكلمات التهنئة والمُباركة، ثم بعد الغداء، وبعد صلاة العصر استدعى الأب ابنته خارج الدار بجانبه على "المصطبة" الكائنة قُرب النخلة الباسقة العامرة بالثمر الأحمر..

ربت على ظهرها مُتحنناً، فالتفتت إلى وجهه، فإذا به يتألق فرحةً وأسفاً، فاندهشت، لكنها ابتسمت، وأطالت النظر في عينيه، فردها عن التوغل فيهما، وقال لها يُبشرها:

ـ لدي خبر، أظن يقيناً أنه سيُسعدك..

لم ترد، لكنها اعتدلت في واجهته تماماً مُتسائلة بعينيها، فأردف:

ـ عندما كنا بالجامعة، حدثني "ماجد"..

وبمجرد ذكره لاسمه زادت خفقات قلبها، وتزايد مُعدل تنفسها، وهو يُتابع:

ـ استأذنني في الحضور من جديد للتقدم إليكِ..

وتوقف هُنيهة عن الإكمال ليُثير شغفها ويشد توقعها، ثم يُتمم خبره:

ـ ولقد... أذنت له..

تحول الاضطراب إلى انشراح وسرور مُفاجئ طفح على وجهها وكيانها، ما لبثت أن وارته، لتُخفي مشاعرها، وقد تحول وجهها إلى وردة حمراء من فرط كتمان خجلها.. لاحظ حيائها، فضحك.. فاستعادت رابطة جأشها، وقالت في شمم:

ـ لا بأس، من حقه الحصول على فرصته..

زاد ضحكه، ثم خفت تدريجياً، وقال:

ـ يا بنتي إنني أتمنى لكِ كل الخير والصلاح.. إنني أدعو الله بذلك طوال الوقت..

ثم تجهم، واكتسى وجهه كله بالأسف، ثم قال:

ـ لعلكِ قد تستغربين تغير موقفي نحو زوجك المستقبلي.. لكن لهذا أسباب..

طأطئ برأسه، ثم رفعها وهو يتنهد بتنهيدة طويلة، وقال:

ـ بعد الزلزال راودتني مشاعر مؤلمة كثيرة، تمثلت حياتي الماضية أمامي.. وحتى الآن ما زلت في حالة من المُراجعة والمُحاسبة...

فاجئها تصريحه الذي استشفته من قبل، وإن كانت هذه المرة الأُولى التي يُعلن فيها عنه صراحةً، فهتفت به وهي تشد على يده:

ـ لو تدري يا أبي كم كنت متفهمة لحالتك إلى أبعد مدى..

ـ أدري يا ابنتي.. أدري.. المهم أنني توصلت لكثير من الاستنباطات... أهمها، أنه مهما كان المرء يملك من الثروات فهي قد تضيع في لحظة واحدة.. ليس المقياس بثروات الناس، إنما المقياس الحقيقي هو معدن الرجال، الذي ينكشف وقت الأزمات.. ولقد لمحت في "ماجد" هذا المعدن.. وما زلت أُنقب عن معادنه، التي أستشعر لمعان نفاستها فيه..

أسعدها هذا الكلام أيما إسعاد، غير أنها تماسكت حتى لا تفضحها فرحتها.. وعقبت:

ـ لطالما تأكدت أنك يا أبي مثال للحكمة والحصافة.. وصدقني لا يُمكنني أبداً أن أتزوج إلا برضاك..

ربت على ظهرها، وضمها إليه، وعادت نبرته المبتهجة، وهو يقول:

ـ تجهزي غداً بإذن الله لمقدمه بالساعة السادسة مساءً..

شعرت "رشيدة" أن الدنيا لا تسعها من السعادة، وراحت تصيح في أركان كونها بلغة سرية أن الحمد لله رب العالمين..

***

(35)

استقر "حسن" وزوجته "زينة" في دارهم بالحقل الذي نشئوا فيه، برغم ترميم مبناه القريب وتجديده، لكنه آثر البقاء في بيئته التي احتضنته ولبت حاجاته المادية والنفسية، خاصةً بما رآه من تحسن لصحة "زينة" حبيبة وزوجة العُمر، ونشاطها وازدهارها بعد نزوحها عن حياة المدينة الخانقة والمملة.. أيضاً فقد فرغت حياتهم بعد زواج كل بناتهم، فلم يعد لهم أنس إلا بثانيهما، بين أحضان بيئتهم الفياضة بالحرية والانطلاق في رحاب الطبيعة المُتكاملة المُحيطة..

لمح "حسن" في خطيب ابنته الإصرار والرجولة والطموح.. وأهم من ذلك النقاء.. خاصةً بعدما أخبره "ماجد" أنه هو و"رشيدة" مُتحمسان لشراء أرض زراعية قُرب فرع النيل.. وسعيه لشراء قطعة من نفس الأرض التي كان يعمل بها في ملكية "عنتر" المُتوفى في كارثة الزلزال، كما نوه له عن تحضيره لمشروع له عوائد ربحية غزيرة.. فدعا لهم الأب بالتوفيق والرزق الحلال الكريم..

بل وعرض على "ماجد" مبلغاً من المال لتسريع خطوات المشروع، الذي سيُسرع بدوره في إنجاز مشاريع أُخرى عديدة، أهمها الزواج نفسه.. لم يقبل "ماجد" المبلغ إطلاقاً، مع الإلحاح والإقناع، قبله فقط على شرط القرض، ووعد بإعادته عند أول فرصة لذلك، واتفقوا على ذلك..

اشترى "ماجد" الأرض من الورثة.. وقسمها إلى قسمين.. قسم صغير بنا عليه بيت الزوجية الذي جمعه مع حب عُمره "رشيدة"، بعُرس بسيط يشبه قليلاً عُرس "حسن" و"زينة" قديماً، وسكنا بمنزل بسيط بمواد اقتصادية للغاية، ساعده على هندسته أحد أصدقائه من كلية الهندسة بالجامعة، والذي شكله بصورة أكثر تقدماً ورُقياً ومُلائمةً للمدنية الريفية !، تجانساً مع ثقافتهم العلمية..

وأي امرئٍ يطل على دار هذه الأسرة ببساطته من الشكل الخارجي، تنتابه قمة الدهشة والذهول من داخله المُنسق بأبدع ما يكون، بحيث يحير المرء ولا يُمكنه الجزم فعلياً إن كانت هذه بيئة ريفية أم مدينة تنتظم فيها أدوات الريف القديمة مع أجهزة المدنية المتطورة والحديثة !

في نفس القسم ألحق مكاناً برحاً لمعمله البحثي الذي أنشأه بمشاركة فريق من زملائه من القاهرة والفيوم.. وبعد ثلاثة أعوام أصبح هذا المعمل قِبلة للمزارعين في أنحاء القُرى المجاورة، وبالفيوم كلها، ومن خارجها من المحافظات الأخرى.. يبعث إليهم بالمُرشدين الزراعيين، ويمنحهم سماداً وأدواتٍ أكثر تطوراً لتيسير طُرق الزراعة، وتحسين المحاصيل المختلفة على أنواعها..

أما القسم الثاني الأكبر من الحقل، فبمشاركة صديقه المهندس، ومعهم اثنين من الأصدقاء، فقد استغل موقعه القريب من القاهرة ومزاراتها السياحية، فزرعه قمحاً ونماه، وبنا فيه كل مظاهر الحقل الخلابة..

داراً طينية واسعة فيها مظاهر الدار العائلية الريفية القديمة، بحجراته وفُرنه الحجري، وبساطته الرائقة، إضافة إلى نثر أدواته المختلفة التي يستعملها أهل هذه المنطقة الزراعية منذ القديم في أرجائه.. وعلى مَبعدةٍ منه بَنا بُرجين حمام رائعين، تتطاير الحمائم منهما وإليهما ومن حولهما في شكل يخلب الألباب.. ووراء البُرجين غرس نخلتين فارعتين في السماء ذات رؤوس معروشة تُنشي الفؤاد، هذا غير النخيل الذي أحاط به الحقل الفسيح من جميع جهاته في مشهد يسحر العيون.. قُرب النهر الفسيح أنشأ ثلاثة سواقي ضخمة من هذه التي تشتهر بهم الفيوم، تدوران تحملان الماء العذب وطميه الخصب إلى مسارب الطين المخطوطة بعناية، ونثر هنا وهناك الفزاعة المشهورة للطيور لتزجرها عن أكل المحصول، بأشكال طريفة تبعث على المرح والإعجاب..!!

التحم المنظر الخلاب مع النهر الدفاق، الذي راح يحمل لهم المراكب الشراعية الأصيلة، فتجري بانسياب في تياره هادئة خلابة، خاصةً مع تأثر أشكالها تبعاً للضوء عند الغسق مع شروق الشمس، وعند الظهيرة، وبالعصاري، وإبان الشفق حيث أفول الشمس..

ألحق هذه التحفة الفنية في سجل السياحة المصري باسم:

"قرية ريفية مصرية قديمة"..

تواردت عليهم أفواج السياحة تدريجياً، شغوفة بمُعايشة هذه الأجواء المصرية الصميمة، التي بهرتهم، وأصابتهم بالهوس، كعادة الأجانب...!

يكفي أنه بعد مرور عامين فقط، أصبح المُنتجع يغص بالزوار والمُستشفين من أمراضهم النفسية.. ولم يتوقف "ماجد" وأصحابه عن تطويره باستمرار، حتى أجزل عليهم بتوفيق الله المكاسب الغزيرة..

وبفترة وجيزة استطاع "ماجد" أن يُسدد جميع ديونه، وأولها دَينه لحماه، الذي تآلف معه، وانسجم بالغ الانسجام، بل وأهداه عدد من الماشية لتوظيفها في المُنتجع، والاستفادة من ألبانها.. الأمر الذي استثمره "ماجد" وشركاءه، وجعلوا الزوار من السُياح يتفاعلون مع بعض العاملات الريفيات اللاتي شاطَرّهُن رشفات من ألبانها عند حلبها..

كذلك أضاف إلى الدار عاملات ريفيات يقمن بوظيفة الخبيز بشتى أنواعه، وأتاحت للسائحين شراء الفطير "المشلتت" والخبز، وخلافه...



الخِتام

بعد الزواج انتظمت حياة الزوجين، واستطاع "ماجد" الحصول على درجة (الماجستير)، ثم (الدكتوراه) بالتزامن مع (دكتوراة) زوجته "رشيدة"..

مع كل مشاغلهم بالعلم والتدريس والعمل في تلك المشاريع العملاقة، فإنهم حرصا على عدة عادات، لم ينقدنها أبداً مع انشغال أو سفر.. منها الخروج معاً عند العصاري، قُرب شجرة الصفصاف الغراء، يتناجيان ويشربان الشاي معاً.. وأهمها الاستيقاظ والصحو عند الفجر، يُصليانه، ويُبادرون إلى أعمالهم، يحرثون النهار بتنميتهم، يُزهرون يومهم ومستقبلهم.. وبعد صلاة العشاء يسكنون آوين إلى منامهم..

بعد فترة وجيزة من زواج "رشيدة" تزوجت صديقتها التي كانت مخطوبة منذ ثمان سنوات من خطيبها، بنفس طريقة زواج "ماجد" و"رشيدة"، واقتدت بهم عدة فتيات يتشابهن في نفس الحالات المتعسرة في الزواج مع خُطابهن وأحبائهن..!

الأمر الذي شجع "رشيدة" وصويحباتها على تكوين جمعية تُسمى "تيسير الزواج"، تعتمد على البساطة في تكاليف العُرس، وبناء المنازل البسيطة على أقرطة من الأراضي؛ لتنشيع الفكرة في أرجاء البلاد، واكتفت بكونها عضوة فيها..

كذلك أصبحت عضوة أصيلة في جمعية "العودة إلى الطبيعة"، وتُلقي من آن لآخر مُحاضرات جمة النفع في مميزات الطبيعة التي هيئها الله لهم من جميع المجالات والاتجاهات..

فوق كل هذا وذاك، فقد صارت هي وزوجها أعضاء في "منظمة البيئة العالمية"، وعلى تواصل بمستجدتها، وإلمام باتفاقيتها الدولية، وباحثين فيها بمجالي تخصصهما.. خاصةً بعد نيلهما (الدكتوراه) من جامعة الفيوم، وعملهما بها..

ولانضمامهم لمنظمة البيئة العالمية قصة.. فبعد الخِطبة، وما زالت أجواء الاحتفاء بنيل شهادة (الماجستير) مسيطرة عليها هي وخطيبها، تناقشا في النتائج، فتحمس "ماجد"، وقال مُحفزاً لـ "رشيدة":

ـ يجب أن يبلغ بحثنا وزارة الزراعة ووزارة الإسكان والعمران.. حتى يأخذوا إجراءاتهم حيال هذه العمائر المخالفة لقوانين الطبيعة.. ويجب أن نبلغ منظمة البيئة العالمية أيضاً..

ـ اقتراحات ممتازة.. ولكن إجراءاتها شاقة ومُرهقة..

ـ لا تبتئسي.. سنتعاون معاً، خاصةً أن أبحاثي تتخذ مساراً قريباً من أبحاثك.. وسنسعى معاً لتفعيل نتائجنا، حتى تتحول إلى قوانين دولية..

ـ اتفقنا..

ثم شردت عيناها بعيداً، فنكزها، وسألها:

ـ فيما سرحتِ ؟..

قالت ومازالت هائمة في شرودها، تعلو ثغرها ابتسامة شبه ساخرة:

ـ أتدري أمراً يا "ماجد".. هذه النتيجة هي أعظم ما كنت أبغيه من وراء انتقامي..

ـ انتقامك ؟!!

ـ بلى.. انتقامي من نقل أبي لنا إلى المدينة التي حاصرتنا في جمودها ومللها سنين طويلة..

ضحك، وعقب:

ـ أعتقد أن نقمك نقماً حميداً، فبحثك قد وجد صدىً لدى الصُحف وبعض وسائل الإعلام، وكثير من المُستثمرين ورجال الأعمال الآن يبتعدون عن الأراضي الزراعية، حتى لا يخسرون مالهم..

ـ هذا صحيح إلى حدٍ ما.. ولنأمل أن يُساعدنا سعينا لدى الوزارات الداخلية، والمُنظمات الدولية في حماية الأراضي الزراعية عن العُمران البائر..

خلال شهور سعوا في عرض نتائج بحثها، وتفاصيله بدقة، وبعد عام لم تُنصت لهم إلا "منظمة البيئة العالمية"، ولم يكن في وسعها إلا التأكيد على نتائجها بأجهزة أحدث، وإقرار تقاريرها ضمن قوانين البيئة العالمية، كما ضمت "رشيدة" و"ماجد" للمنظمة كناشطين وعاملين وباحثين في مجال البيئة، وتنميتها وحمايتها في مصر..

كانا قد تزوجا، عندما تلقيَ خبر انضمامهما، فرحا بهذا التكريم والتكليف، واحتسباها هدية من المنظمة على زواجهما، مستبشرين بها خيراً..

وبوقت العصرية.. عند شجرة الصفصاف المُطلة على النهر، بينما يسندان ظهريهما إليها، يستجمان بالمناظر المُثيرة للهدوء والراحة، قالت "رشيدة" مُتبرمة:

ـ لم تستمع إلينا الحكومة للأسف..

افتعل حركة ساخرة، وعلق مُردفاً:

ـ ولن تستمع..

ابتسمت، وقالت بنبرة مُنتصرة:

ـ على الأقل فزنا بعودة أرضنا لطبيعتها التي خلقها الله.. سنعيش بُسطاء عليها كما تتحنن إليها فطرتنا..

وتشابكت أيديهما بحب، يرنون للأُفق الفتان في اطمئنان، كأنهم يستعدون للطيران صوب الأحلام، يقتنصوها، ليفترشوا بها الغيطان..

عاشوا معاً في محبة وعرفان، وأنجبوا البنات والصبيان، وبقت السعادة مشوبة بالأعضال العادية التي تطال الحياة، كما العادة، على وجه البسيطة..

تم بحمد الله

الاثنين 2012/12/10

Omar_ahmd@hotmail.com
Ameer.al5yaal@gmail.com

أهي الأرض.. رشيدة، لها كينونة وحياة وحدها، لا تنتظر الإنسان ليُعمرها، بل قد تُساعده هي أو تُرشده وتحل له إشكالياته العامة، والخاصة...!

أم أن "رشيدة" واقعة بين تُراثها وتحضرها، هي التي ساعدت أرضها، وماجد حياتها، على التحرر والازدهار..؟


كم ازْدَرَتْ تلك العمائر التي صرفت
عن أرضهم خيرها، بل إنها تتخيّل
منذ كانت صغيرة بعد إن أنشأت
المباني بأن الأراضي تئنُّ من تحتها،
تمدُّ يدها الوهمية تستغيث بالنهر
كي يزيح عنها هذا الحِمل القاتل،
ويهبها جرعة تُطفئ به ظمأها
الطويل.
عمر أحمد سليمان
Designed by: Sarah Seliman